سمير عطا الله

بائع الفستق



العبيكان
Obeikan


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عطا الله، سمير

بائع الفستق./ سمير عطا الله. - ط٢ .- الرياض، ١٤٢٩هـ

١٣٤ ص: ١٤ × ٢١سم

ردمك: ٤-٥٨٤-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١- القصص العربية - لبنان أ- العنوان

ديوي ٨١٣,٠٣٩٥٦٦ ١٤٢٩/٦٤٢٨

رقم الإيداع: ١٤٢٩/٦٤٢٨

ردمك: ٤-٥٨٤-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى الخاصة بمكتبة العبيكان

١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م

الناشر: العبيكان للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ /٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ /٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥



الفهرس

عن «بائع الفستق»

إنها المحاولة الثالثة لي في كتابة الرواية. الأولى كانت بعنوان «الحب والجزائر» حين كنت في التاسعة عشرة من العمر. وكان العصر يومها عصر الجزائر. وفي تلك الأيام عاد إلى قريتي رجل قيل يومها إنه كان في «الفرقة الأجنبية» وقد سُرّح بعد انتهاء خدمته، ليحارب طبعاً ضد الجزائريين. أما الرواية التي وضعتها فكانت حكاية رجل يهرب لكي يحارب مع الجزائر، لا مثل الجزائريين، بل على الأقل مثل الفرنسيين، أو كما حارب الإيرانيون والإنكليز والفرنسيون في إسبانيا.

تلك المحاولة لم تنشر. كانت صبيانيةً وغير مكتملة.

أما المحاولة الثانية نشرت في «المستقبل» عام 1977 بعنوان «مضيق مينيسوتا» وهو الاسم الذي يطلق على حي الهوى في نيويورك. وقد كتبت تلك المحاولة متأثراً بحادثةٍ وقعت لي، إذ دعيت ذات مرة إلى أحد مطاعم نيويورك الفخمة. وفيما نحن خارجون ذهلت إذ رأيت أن الرجل الذي يعلق المعاطف هو محامٍ من بيروت وكان جاراً لي.

وكتبت، أو حاولت أن أكتب فصلاً من فصول الهجرة، لكنني في نهاية الأمر لم أكن راضياً عن المكان، ولذا لم أرسل الرواية إلى المطبعة.

أما «بائع الفستق» فلم تبدأ كرواية، بدأت حين احتجت إلى موضوع أملأ به الضفة الأخرى (أي زاويتي الأسبوعية في «المستقبل»). وبحثت في ذاكرتي فلم أعثر على موضوع، أي موضوع. وكان يخطر في بالي منذ زمن

أن أكتب حكاية رجل عرفته في طفولتي ولم أعد أسمع عنه شيئاً. وذات مرة قيل إنه عثر على فلان يبيع الفستق في ساحات أكرا، (عاصمة غانا). وقلت في نفسي إنه موضوع رواية رائع.

لكن ها أنا أحتاج لملء الضفة الأخرى، إذاً، أكتبها روايةً قصيرةً على حلقتين أو ثلاث، غير أنه بعد صدور الحلقة الثانية اقترح أصدقاء كثيرون أن أكملها كرواية طويلة أو متوسطة.

وهذا ما كان.

ونشرت المحاولة مسلسلةً في (المستقبل) لكنني غيرت كثيراً في الأسماء والأجواء، وجعلت مكان الرواية في (كاويلاك) في السنغال لكي لا أجرح مشاعر أقرباء الرجل. أما هو ـ بائع الفستق ـ نفسه، فقد كنت مقتنعاً أنه مات منذ زمن.

وبعد نشر الرواية بقليل ذهبت إلى السفارة اللبنانية في باريس لأجدد جواز سفري، دخلت إلى مكتب الصديق انطوان دكاش هناك فأكمل المعاملة ثم دعاني لاحتساء فنجان من القهوة.

وبعد قليل نظر إليَّ وقال: لولا اختلاف الزمان، والمكان لقلت في نفسي إنني أعرف بطلك في (بائع الفستق) حق المعرفة.

قلت: ماذا تقصد؟

قال: لقد طلبت إليَّ أن أذهب إلى مأوى عجزة على بعد 40 دقيقة من باريس لأتمم معاملات رجل في الثمانين من العمر. كان في أفريقيا ويحمل الجنسية الفرنسية. ذهبت بنفسي إليه فروى لي قصته فإذا بروايتك الكثير منها.

وأسقط في يدي.

وقلت للصديق: إن صاحبك هو «بائع الفستق» نفسه، وقمنا إليه نزوره مع المسنين المعقدين الذين لا معين لهم في هذه الحياة.

لكن كان الأمر قد انقضى و كنت قد كتبت الرواية كما ستقرأها بين دفتي هذا الكتاب.

سمير عطا الله

لندن 1988

الحلقة الأولى

ما إن خرج من بوابة الفندق الصغير حتى وجد نفسه وسط الشارع حيث الازدحام والتعرق. لفحه حرّ لا هواء فيه. مجرّد حرّ يحمل نفسَه إلى كل مكان، ويجر خلفه الرطوبة والنعاس وأبواق السيارات المتشابكة. حرّ دون هواء، سدّ من الحر لا يمكن أن ينفذ منه الهواء. فقط يعبره الهواء المليء بالحر والغبار. وشعر بالشمس كأنها تمسك بشعره وجبينه. وكاد أن يعود إلى بهو الفندق لكنه تذكر المراوح البليدة فوق رأس موظف الاستقبال، وتذكر الزبائن الذين حملوا - دون جدوى - مراوح إضافيةً من الورق. فقرر أن يقتحم الساحة بالصياح والمناداة على أصناف السمك الطازج.

كان قد سمع كثيراً عن الحر في إفريقيا، لكن ها هو يلتقيه، وحين وصل إلى البلدة الليلة البارحة كان الجو راكداً بعض الشيء، والدنيا قاتمة، والشوارع هادئة تملؤها رائحة النعاس، فلم يدر أنه سوف يفيق على هذا المحيط من القيظ، لم يكن يعرف أن هذه المدينة الصغيرة تعج بكل هذه القوافل من الناس والسيارات والشاحنات والجِمال وبائعات الحبوب اللواتي تحوّلن إلى أوراك تجلس فوق نفسها، وإلى وجوه مجبولة بالشمس، وعيون تنظر في ما لا يُنتظر، وأفواه تنادي على شيء واحد طوال النهار مثل رقاص الساعة، أو مثل لازمة رتيبة في أغنية رتيبة.

وقبل أن يعبر الشارع إلى الحديقة العامة مقابل الفندق لمح عند الزاوية رجلاً طويل القامة، أسمر اللون، أبيض الملامح، يبيع الفستق الحار،

فتوقف وعاد إليه واشترى القليل من الفستق، ثم مشى عابراً الطريق، ثم حديقة النخيل الصغيرة، ثم الشارع الآخر إلى مبنى قديم أغبر اللون في الجهة المقابلة.

كان يملك كل شيء إلا الوقت، ولذا كان مستعجلاً، لكن كانت هذه أكثر المهام تعقيداً في حياته وأكثرها صعوبة، لقد أمضى سنوات طويلة وهو يقوم بمهام للآخرين، يدافع عن هذا ويرافع ضد ذلك هناك، توكل إليه مهمة هنا ومهمة أخرى هناك، أما الآن فهذه أول مهمة يوكلها إلى نفسه، وهو لا يعرف من أين يبدأ ولا أين سينتهي، يعرف كل شيء ولا يعرف شيئاً، ويعرف قبل أي شي، أن عليه ألا يعود صفر اليدين، فثمة قلوب كسيرة تنتظره، بينها قلبه.

صعد الدرج الضيق وهو الكتلة من العرق الممزوجة بالغبار، وضحك من نفسه وهو يقرع الباب، فقد رأى ثيابه الباريسية الأنيقة مضحكة في ذلك الجو، وعلا كتفيه طلائع الملح فنفضها قليلاً، ثم قرع الباب بيد ثابتة ورقيقة، مرةً، ومرتين، وأخيراً انفتح الباب قليلاً، وكان أول ما وقعت عليه عينه المروحة العتيقة في السقف، فارتاح قليلاً، والتقط أنفاسه بينما كان الرجل النحيل الآخر ينتظر منه أن يتفوه بأي شيء، وبعد لحظات قال أخيراً:

- الحاج عثمان؟

ففتح الحاج عثمان الباب كاملاً، ووضع على الطاولة ركوة الشاي، ومد إليه يديه مرحبتين، وقال بعربية واضحة تشوبها اللكنة السمراء:

- أهلاً. أهلاً.

ثم ضحك وهو يقوده إلى الداخل قائلاً: «لقد بللتك (كاويلاك) لحظة وصولك، الدنيا تمطر عندكم، بينما تمطر عندنا ملحاً وحرارة. هل أمضيت ليلةً هادئة؟»

واتخذ لنفسه كرسياً عتيقاً، أما مكتب الحاج عثمان فجلس ملقياً عليه تعب سفر يومين ماضيين، كان مكتباً يوحي بالاحترام مع أنه كان متقشفاً إلى حد بعيد. بعض آيات كريمة فوق رأس الحاج عثمان، وصور موزعة على الجدران بكل تنسيق: الحاج عندما كان طالباً في باريس، الحاج مع أولاده الأربعة بالعباءات البيضاء الأنيقة، الحاج في أحد المؤتمرات القانونية الإفريقية في أبيدجان. أما الباقي فملفات وأوراق مكدسة وكتب فرنسية يعرفها أهل القانون من طريقة تجليدها لكثرة ما ألفوها وألفتهم.

وقبل أن يصب الحاج عثمان الشاي كان قد دخل فوراً في صلب الموضوع:

هل نحن أمام قضية صعبة يا حاج عثمان؟

- «صعبة» تساءل الحاج عثمان؟ لا. قد تكون واحدةً من أسهل القضايا، لكنها قد تكون صعبة أيضاً. نحن لسنا أمام قضيةٍ قانونية على أي حال، والمرجع الأخير ليس القضاء. على الأقل ليس في المرحلة الراهنة. علينا أولاً أن نعثر على الرجل، وحين نعثر عليه - فقط حين نعثر عليه - يصبح بإمكاننا، أو بالأحرى يتعين علينا اللجوء إلى القضاء. أما الآن فلا. الآن الدور للحكومة أنت تعرف أن هناك آلافاً من اللبنانيين في السنغال. بعضهم في داكار، وبعضهم في قلب البلاد. فكيف يمكن أن نعثر عليه دون اللجوء إلى الدولة كما تقول؟..

وحاول الرجل أن يعترض.

لكن الحاج عثمان تظاهر بأنه لم يصغ:

- أعرف جيداً ما تريد أن تقول. إنها مسألة دقيقة حقاً. لكن لا حل لنا إلا عن طريق الدولة. فالسفارة تقول. إنها لا تعرف شيئاً عنه وانه منذ تأسيسها لا ذكر له في سجلاتها. وأنت تصرّ على أنه في السنغال وأن البعض قد شاهده منذ سنين. لكن لماذا لم تتحركوا وقتها؟ لماذا أهملتم الموضوع حتى الآن؟

ولم يجد ما يدافع به عن نفسه. هل يقول له إنه كان مشغولاً بجمع المال؟ إنه حتى الآن لا يملك الوقت. وانه يريد الآن أن يحل في يوم. أو يومين على الأكثر. قضيةً عمرها أكثر من ثلاثين عاماً.

- على كل حال. قال الحاج عثمان: اترك الأمر لي. لا بد من العثور عليه. وقبل أن تصل البارحة اتصلت بإدارة النفوس المركزية في داكار. إنهم يبحثون في السجلات. لكن لا بد لي أن أحذرك من أن بعض هذه السجلات قد فقد بعد الاستقلال. وبعضهم الآخر عند الفرنسيين. هل حاولتم البحث عنه في السجلات الفرنسية؟

الحَلقَة الثّانيَة

لا. لم يبحثوا عنه في السجلات الفرنسية، الواقع أنه لم يخطر لهم ذلك على الإطلاق، وكيف يخطر في بالهم مثل هذا الأمر في أي حال؟ لقد غاب دون أن يترك ورقةً واحدة، لا رسالة، لا كلمة، لا شيء. غاب، مثل الشمس، كأن المسألة عادية أو رتيبة، ذات مساء كان يجلس على الشرفة. أجل. الشرفة.

وبدأ يعود إلى الوراء. عشرين، ثلاثين عاماً إلى الوراء. أجل، كان طفلاً، طفلاً صغيراً لا يعرف من الدنيا سوى الليل والنهار والملاعب. وذات صباح في يوم صيفي، استفاق على بكاء مكتوم وضجيج. وللمرة الأولى خرج من سريره دون أن تنتبه أمه إليه. ودخل إلى بهو الدار فرأى حركةً وضجيجاً وأمه تبكي. ووالده واجم يداعب مسبحته العنابية الطويلة. وأناس كثيرون، ورجال درك وقضاة. كان البهو حاشداً، ولم يعرف أحداً من الزوار. لم يكن يعرف أن كل لبنان الرسمي كانت هناك، وأن كل أرستقراطية صوفر قد تجمعت في الدار المطل على الوادي، لقد سرت الحكاية مثل ضباب صوفر: هادئة وباردة وكثيفة.

وراح الناس يفدون واحداً تلو الآخر، بعضهم صامت، وبعضهم يقول أشياء لا يعيها، وبعضهم الآخر يحلل في ملل وهدوء أعصاب.

وركض إلى أمه فغمرته وبكت، ثم ربتت على كتفيه فعرف من ذلك بغريزته الطفولية أن ثمة شيئاً حزيناً قد حدث. وظل والده صامتاً

كالعادة. ثم خرجت «المربية» من بين الناس واقتربت منه وأخذته من يده، مستسلماً، حائراً لتعيده إلى غرفته. لكنه استشف من كل ذلك الهمس أن شقيقه ذهب ولم يعد!

شرب الشاي عند الحاج عثمان وعاد يقطع الحديقة الغبراء إلى الفندق، وفي القيظ كانت الصور القديمة تتصبب مع عرقه، لقد تذكر الآن أنّ هذه هي المرة الأولى في حياته التي تجرأ فيها على مواجهة الأمر تماماً. وتوقف فجأة وسط الباعة والصياح ورائحة النخيل وراح يتأمل نفسه البعيدة، راح يتأمل شخصاً مهزوماً يملك كل شيء ولا يملك شيئاً، رجلاً يملك المال والجاه والإرث لكنه يفتقد شيئاً ما، إنه يفتقد العاطفة. إنه إنسان بلا مشاعر، لكم أحس بالخجل عندما رأى أن الحاج عثمان، المحامي السنغالي الذي لم يكن قد رآه في حياته قط، قد أعطى القضية من عاطفته أكثر مما أعطاها هو، كان الحاج عثمان يفتش في دفاتره ثم يخبط يده الرقيقة على الطاولة، أعانكم الله! أعانكم الله! إنها ملحمة حقيقية، إنها أسطورة، لكن لماذا لم تبحثوا عنه قبل الآن؟

لماذا لم تبحثوا عنه قبل الآن؟

هل يُقبل هذا التأنيب من رجل غريب؟ وماذا عن ضميره؟ وأخذ يبحث لنفسه عن اعتذار، لم يكن ذلك ممكناً قبل الآن، لم يكن يعرف ذلك قبل الآن، لم يكن يملك مفتاحاً أو إشارةً، أي مفتاح للبحث عنه. لقد ذاب في دنيا الله دون أن يترك أثراً أو كلمة.

آه إنه يتذكر الآن ذلك الصباح في البيت المعلق بين الضباب والحَور والصفصاف في صوفر، يومها قيل إن آخر من رأى شقيقه كان بائع الحليب وراعي البلدة.

وكان عائداً في المساء من الحقل ومعه قطيع الماعز المتعدد الأجراس فألقى عليه التحية كالعادة، بعصاه ومضى. كانت الشمس تشرع في الغياب، والضباب يأتي إلى صوفر من الأودية فيلتقي لديها بالرذاذ وبالغيوم، وسمع الراعي تلك اللحظة صوت القطار يصفر كأنه يستعين على تسلق الجبل بالصراخ، وينفث دخانه الفحمي في الهواء فيختلط بغلالة الغيم الشفافة التي تلف صوفر في الصباح والمساء، فعرف أنها السادسة! موعد قطار الشرق السريع الذي يبدأ رحلته وحيداً، عتيقاً في هضاب بيروت، ثم يروح يحرث في الجبال والسهول، حاملاً قطعاناً من الأغنام وكمسارياً مترهلاً، ما إن يقلع القطار حتى يخلع قبعته على المقعد ويستسلم للنوم.

ليس ثمة ركاب ولا تذاكر إلا ما ندر. الناس تفضل البحر والآن هذه الآلة العجيبة التي جاءت مع الحرب، الطائرة!

إذاً كانت السادسة مساءً، وكان القطار يمر بطيئاً، والراعي يرسم بعصاه في الهواء تحية المساء للذين يمر بهم وهذا كل شيء، لا تفاصيل أخرى، لا شاهد آخر، وعندما عادت أمه إلى المنزل بعد ذلك بنصف ساعة تقريباً كانت الشمس قد غابت، هو أيضاً كان قد غاب.

ومنذ ذلك الصباح البارد في ذلك البهو في صوفر، وهو يسمع النظريات عن غياب شقيقه، قيل أول الأمر: إنه انتحر لكنهم عندما فتشوا غرفته، أي عندما سمحوا أخيراً لرجال الدرك بتولي التحقيق رسمياً، تبين أنه قد أخذ معه حقيبةً صغيرةً فيها بعض الملابس وبعض الصور، وبحثوا عن هويته فوجدوا أيضاً أنها قد اختفت، ثم، لماذا ينتحر شاب في مثل سنه وجاهه وماله؟

إذاً ﴿ الأمر امرأة، لا بد أنه فر مع امرأة لكنه لم يكن قد تحدث عن امرأة من قبل. بالأحرى لم يتحدث عن امرأة معيّنة من قبل. كانت هناك فتيات وأسماء عابرة كثيرة بالنسبة إليه، وليس امرأة واحدة. وإذا كان ثمة امرأة فلماذا لم يفاتح والده بالأمر قبل أن يخطفها أو تخطفه أو يخطفان بعضهما البعض؟ إذاً، هناك عدو ما؟ لا، إنه رجل بلا أعداء. صحيح إنه وحيد وبلا أصدقاء أيضاً، لكنه إنسان من دون أعداء بالتأكيد. وهل يكون لطالب على وشك التخرّج أعداء؟ وكرّت النظريات وتحوّل كل رجل ﴿ البلدة إلى شرلوك هولمز، أو المفتش بوارو. وكانت شواربهم الكثة تناسب اللقب على كل حال.

كان صغيراً، بالكاد يعرف أن يتكلم وهو يسمع كل هذه الحكايات المتطايرة، لكنه يذكر تماماً أن الفرح لحق بشقيقه منذ ذلك الوقت. وأنه من يومها أيضاً أخذ يرى السنين تتراكض ﴿ حدقتي أمه، تركض وتندفع بأبيه إلى الانحناء مثل العاصفة أو الإعصار، لقد أصبح شقيقه، منذ تلك اللحظة، يحضر كل شيء، كل غداء كل عشاء كل نزهة. ولم تعد العائلة تذهب إلى صوفر ﴿ الصيف، بل يبقون ﴿ بيروت فوق شرفة تطل على بحر أزرق بلا قرار.

ها هو يتذكر كل هذا العمر ﴿ لحظات. وفكر لوهلةٍ أن يذهب إلى مكان ما بدلاً من أن يعود إلى ذلك الفندق الملتهب بالملل والحر، لكن أين يذهب ﴿ (كاويلاك) وهو لم يكن يعرف فيها أحداً قبل أن يلتقي الحاج عثمان. كم هو طيب هذا الحاج عثمان، لقد رأى نقاءً إفريقياً وتقشفاً ﴿ قامته الرفيعة وكانت قلنسوته البيضاء مثل هالة فوق رأسه.

وقطع عليه أفكاره من جديد وصولَه إلى الفندق، لكنه قبل أن يهم بالدخول رأى بائع الفستق الحار واقفاً عند الزاوية، فعاد إليه. لقد أصبح له صديق آخر في (كاويلاك)، ومد يده إلى جيبه فاكتشف أنه يحمل قرشاً واحداً من نقد البلاد.

فاعتذر للبائع وأعاد له كيس الفستق، غير أن البائع، الذي يكاد يشبه الحاج عثمان بقامته الطويلة الفارغة، أصرّ عليه أن يأخذ الكيس الصغير: «لا! لا! تدفع غداً تدفع حين تشاء. بل لا تدفع أبداً إذا شئت يبدو أنك جديد في (كاويلاك)».

سأل بائع الفستق ضاحكاً: «كيف عرفت أنني جديد؟»

فرد البائع ضاحكاً أيضاً: «من ثيابك يا سيدي. إن أحداً لا يرتدي هذه الثياب في الصيف هنا إلا إذا كان يأتي إلى (كاويلاك) لأول مرة».

وشكره على الفستق بخجلٍ ومضى إلى الفندق ليقطع المساء في قراءة صحيفةٍ فرنسيةٍ عتيقةٍ عثر عليها في البهو تحت المروحة البليدة.

الحلقة الثالثة

حاول أن ينام فلم يستطع. وحاول أن يقرأ الصحيفة التي في يده فلم يستطع أيضاً، فاستلقى على فراشه وراح يقرأ تحت السقف الرطب والمروحة الجافة.

وكان يتناهى إليه من النافذة عواء بعض الكلاب الجائعة، ومواء قطط تائهة، وكانت تلاحقه دون وعي منه كلمات الحاج عثمان: هل بحثتم عنه في السجلات الفرنسية؟ فما إن حلَّ الفجر ـ والفجر يطلع باكراً في (كاويلاك) ـ حتى كان يعبر الساحة الصغيرة من الفندق إلى مكتب الحاج عثمان، وللمرة الأولى رأى الساحة هادئةً وقد وفد إليها القليل من الباعة، وتفقد بائع الفستق متذكراً أن له في ذمته حساباً صغيراً، فلم يره هناك كالعادة واقفاً مثل زاوية إضافية حادة عند زاوية الفندق، وحين قرع جرس الحاج عثمان تذكر أن الوقت لا يزال مبكراً جداً. وأنه هو الذي يبحث عن شقيقه وليست بلدة (كاويلاك). فقرر أن يعود، لكنه لمح الحاج عثمان آتياً من بعيد، يتأبط زاده وكتبه، ويسوِّي بحركةٍ عفويةٍ، قلنسوته البيضاء الصغيرة، فتبادلا التحية ثم قال الحاج عثمان قبل أن يصافحه:

- احمد ربك أنني أجيء إلى هنا بعد صلاة الفجر، لكن أحداً غيري في هذه البلدة لا يأتي إلى مكتبه في هذه الساعة.

وأجاب بكل صراحة: الحقيقة أنني لم أنم الليلة يا حاج، فقلت في نفسي نبدأ نهارنا باكراً. هل من جديد لديك؟

وقال الحاج: لا، ليس من جديد. لكنني أنا أيضاً لم أنم الليلة. لقد خطر لي أنه لا شك أنهم يعرفون عنه شيئاً في فرنسا. ولذا أبرقت سريعاً إلى زميلٍ لي في باريس وطلبت منه أن يذهب فوراً إلى وزارة العدل، أو دائرة النفوس. فإذا عثروا على اسمه كانت تلك بداية الطريق.

وصرخ في الحاج عثمان قبل أن يبدأ صعود الدرج الضيق:

- بداية الطريق؟ لقد ظننت يا حاج أنني سأعود من هنا وشقيقي معي!

وضحك الحاج عثمان بهدوء وقال له بين المداعبة والتأنيب:

- إنها قضية عمرها ثلاثون عاماً وأنت تريد حلها في يومين أو أربعة. إن هذا مستحيل يا صديقي، لكن لا بد أن نحاول كل شيء، على كل حال نحن لا نعرف شيئاً الآن.

كل ما نعرفه أن لك شقيقاً ضائعاً، وأن بعض الناس يعتقدون أنهم شاهدوه قبل سنوات في داكار، وقال آخرون إنهم شاهدوه هنا، لكن حتى هؤلاء لم يكونوا واثقين وكانوا يقولون إنه يطلي وجهه كل يوم ليخفي معالمه البيضاء.

وهناك من يقول إنه تزوج من إفريقية غير أن هذه أوصاف تنطبق على كثيرين. إنها ملامح عامة لا علامات فارقة. وإذا كان الرجل حقاً هنا فلا بد أنه دخل البلاد تحت اسم آخر، إذ بعدما تركتني أمس وذهبت جاءني الجواب من داكار بأن أحداً لم يدخل السنغال بهذا الاسم بعد الحرب، فإما أن يكون قد جاء باسم مزيّف، أو أنه دخل البلاد خلسة مثل كثير من المهاجرين.

وشعر بالضيق، لماذا اليأس في نفس الحاج عثمان؟ وقال له في شيء من الاعتراض: إنك تعامل القضية يا حاج وكأنها أسطورة في حين أننا أمام مسألة قضائية عامة.

وراح الحاج عثمان يصب من إبريق عتيق كوبين من الشاي ملأت رائحتها الغرفة وعاد يقول في هدوء:

- إنها قضية عادية لو أننا نملك أيّ مفتاح لها لكننا أمام أحجية قضائية أو قد نكون أمام قضية لا وجود لها. أي أن يكون شقيقك موجوداً في بلد آخر أو أنه غير موجود على الإطلاق، هذه حقيقة يجب أن تواجهها. أنا أستطيع مساعدتك في العثور عليه إذا كان هنا حقاً، أما إذا لم يكن فماذا أستطيع أن أفعل؟

وشرب الشاي مستسلماً، وقال له الحاج عثمان إنه يتوقع جواباً من فرنسا في بحر النهار، فإذا أراد أن يتمشى قليلاً في «كاويلاك» فليفعل وليعد عند الغروب.

طبعاً لم يرد العودة إلى الفندق. كانت الساعة لم تتجاوز الثامنة بعد فخرج إلى الحر هائماً على وجه، وكان أول من طالعه حين عبر الساحة بائع الفستق وقد احتل مكانه في الزاوية مثل خط حزين مستقيم، وفي بداية النهار كان صدر الفستق لا يزال مليئاً، والبائع يرتب الفحم المشتعل. اقترب منه ووضع مبلغاً صغيراً من النقود هو الدين المترتب عليه.

وتردد بائع الفستق، ثم عاد فأخذ المبلغ، وراح يملأ لضيفه الغريب كيساً جديداً.

ما دام يريد أن يبعثر الوقت فلماذا لا يحاور البائع؟ فسأله هل أنت من «كاويلاك»؟

فهز الرجل برأسه لكنه أضاف بسرعة أنه لم يأت إلى هنا منذ زمن طويل:

«لا، الأصل من داكار، لكنني جئت إلى هنا منذ سنوات. وأنت من أين أتيت؟».

ضحك قليلاً ثم ردّ: «أنا من بيروت. هل سمعت ببيروت؟»

قال البائع: «وهل هناك من لم يسمع ببيروت. إنك إذا تجولت في هذه المدينة لا بد أن ترى قريباً لك. إن نصف الناس هنا من عندكم».

ومرت به سيارة تاكسي فأوقفها.

ـ إلى أين؟

ـ إلى أي مكان. جولة في البلدة، جولة بين الزمامير والسيارات الملونة والباعة والصياح والسيارات المخلعة النوافذ.

وإذ نظر إلى السائق رأى كل الناس في البلدة تشبه بعضها. وسرعان ما قال السائق مقهقهاً: آه، إنك ضيف المدينة. أهلاً بك هنا. من أين أنت؟

ولم يتركه يجيب طبعاً، بل أكمل وكأنه لا يريد أن يفتح حديثاً معه «إنك لا شك من بيروت. طبعاً من بيروت. لقد كنت أنا في بيروت خلال الحرب الثانية، عامين هناك، ولي أصدقاء كثر، أسماؤهم؟ آه، لقد نسيت أسماءهم. لقد مضى زمن طويل الآن، يا إلهي كم هي جميلة تلك المدينة... واليوم، هنا كثيرون من عندكم. إنهم يملكون البلد».

وضحك السائق مقهقهاً: أيام الفرنسيين كنت أنا أملككم، وكان الفرنسيون يملكوننا، الآن ها هم اللبنانيون يملكوننا في قلب بلادنا. إنهم يبيعوننا كل شيء ثم قلّب كتفيه مقهقهاً: «أجل كل شيء، وربما يبيعوننا نحن أيضاً. إليك هذه القبعة لقد اشتريتها من صديق بيروتي، ثم قهقه حتى كاد ينفجر، وهذا الحذاء، هذا الحذاء أيضاً اشتريته من صديق لبناني. حذاء وقبعة».

وأخذ الرجل يقهقه.

الحلقة الرابعة

وطفق سائق سيارة الأجرة يقهقه فيما عاد هو يغرق في الأفكار وفي التصبب عرقاً. إن الساعات تمرّ فارغة في «كاويلاك» وعليه أن يعود سريعاً إلى باريس وبعدها إلى بيروت. وكيف يعود إلى بيروت من دون شقيقه؟ كيف يقول لأمه إنه لم يعثر عليه، وقد بلغها مؤخراً أن ذلك الضائع المفقود موجود في السنغال؟ كيف يقنعها بأن تترك النافذة لحظةً واحدة؟

منذ عام 1945 وهي تعيش خلف النافذة. أغلقت باب البيت وفتحت النافذة! لم تعد تستقبل أحداً ولم تعد تذهب إلى أحد، كانت هي نصف الحياة الاجتماعية في بيروت، قبل الاستقلال وبعده. لكن ما إن ذهب ابنها البكر إلى المجهول حتى صارت حبيسة الجدران الأربعة. وتركت لنفسها فقط النافذة ترى منها النور والمارة والحصى تلمع أمامها مثل ذكريات قديمة في قاع بحيرةٍ جافة. ولكي لا ترتدي فستاناً في لون الحداد ارتدت فستاناً كحلياً غامق اللون وتحوّلت مع الأيام إلى جزء من النافذة ومن خشبها وزجاجها. فما استطاع أحد أن يحرّكها من مكانها ولا استطاع أحد أن يفتح لها باب البيت إلا لماماً وفي مناسبات نادرة جداً.

من الممكن دائما أن تكون لكل أمٍ حسرة واحدة إلا هي، لقد كانت حسرتها مضاعفة.

فهي تعرف في قرارة نفسها أنها السبب في ذهابه... أينما كان، تعرف أنها أهملته وأهملت البيت، بل أكثر من ذلك، لقد خيل إليها أنها أذلّت الأسرة يوم كانت تظن أنها ترفعها!

وعندما أخذ الجميع يفتشون في الأسباب التي يمكن أن تحمله على السفر كانت هي في نفسها تعرف السبب جيداً، لكنها جعلت السبب سجين صدرها أيضاً فما باحت به لأحد. كانت تخشى إن هي اعترفت أنها تشعر بالراحة أو أن شيئاً ما يخف عذابها، هي ترفض ذلك. وفي الوقت نفسه كانت تشعر كأم، مبرر بقائها الوحيد هو عذابها. . . لذا أبت أن تتفوه بكلمة واحدة.

فقط هكذا، أسندت ظهرها إلى وسادة، ومنحت نفسها للنافذة وللانتظار. واذا ما قامت لتأكل أكلت خبزاً جافاً وبكت.. وتناولت القليل من الحساء وبكت، أو مدت يدها، في حالات نادرة، إلى ثمرة ما ثم بكت. وكان الناس يعتقدون أن الأيام سوف تجفف حدقتيها، لكنَّ في عيون الأمهات ينابيع خفية لا تجف، وناراً لا تنطفئ إلا لتشتعل من جديد مثل منارات البحار، ونعيق السفن الضائعة. الأم دمعة تتساقط مدى الحياة، حزناً أو فرحاً.

مرّت في خاطره هذه اللمحات الحزينة والسائق ما يزال يقهقه، ويتنقل به من طريق ترابية إلى أخرى والحر يخرج من السيارة الصغيرة العتيقة ويدخل إليها حاملاً دائماً شيئاً من الثرثرة، وكاد يبكي هو أيضاً إذ راح يتذكر كيف أمسكت به أمه وشدته، على وهنها وضعفها، بكل عنف: إياك أن تعود من دونه، احمل لي شيئاً منه، عد إلي بشعرة منه، عد إليّ بنتفة من قميصه المفتوح الأبيض.

وتذكر أيضاً كيف انهارت، هذه السيدة الحبيسة، هذه المرأة التي كانت نصف بيروت، كيف انهارت قبل سفره، حين شعرت أن ثمة إمكانية في أن

يلتقي بشقيقه. وراحت تعترف له بكل حزن، وللمرة الأولى في حياتها أنها هي، بالذات ـ كانت السبب في اختفائه: «لا بد أنه أصبح يخجل بي. كنت. أعرف ذلك من نظراته العابثة، كنت أعرف ذلك من انطوائه، كنت أعرف ذلك من وحدته الدائمة. أجل كنت أعرف ما به لكني لم أفعل شيئاً.

«كان يحب أن يعرف، من أجله على الأقل، أنه لم يكن هناك شيء مشين وراء تلك المظاهر العاصفة، وكان يجب أن يعرف أن جميع الرجال الذين كانوا يراهم في البيت لم يكونوا شيئاً لي، لقد كانوا جزءاً من البيت. مثل المقاعد والطاولة وصحون الفاكهة. لم يكن أحدهم يعني أيّ شيء. لم تكن لي أي علاقة مع أحد. ألم يكن من الأفضل أن يعرف ذلك قبل أن يتركني لمثل هذه الحياة؟»

أعاده اعتراف أمه إلى الطفولة مرةً أخرى، لم يتوقف عند ذهاب شقيقه، بل عند تلك الوجوه الكثيرة التي كان يراها في المنزل، وجوه كثيرة وسيارات وسائقون ينتظرون عند مدخل الحديقة في صوفر. أناس وأوسمة وحفلات! لم يشك لحظةً واحدة في صدق اعترافها ولا في صفائها. لم يشكك لثانية في عذاب النافذة قرابة ثلاثين عاماً. لكنه لم يملك سوى أن يتذكر تلك الوجوه، وخطر له بالذات وجه الأستاذ! ماذا كان يفعل ذلك الرجل طيلة الوقت في البيت؟ إنه لم يكن يفارق أمه لحظة واحدة، لقد كان هو أيضاً جزءاً من البيت مثل المقاعد والصحون! بكلام آخر لقد كان شاهداً على تلك المرحلة، فلماذا لا يسأله عما حدث فعلاً؟ لكن هل يتكلم الأستاذ؟ إنه أيضاً يكاد يكون حبيس داره فلا يخرج إلا قليلاً! وخطر له للمرة الأولى أن الأستاذ، صديقه وزميله في المحاماة، قد يكون حبيس النفس رداً على حبيسة النافذة. هل هذا ممكن؟ هل ثمة علاقة بين هذه

العزلة وتلك؟ هل هناك انتقام متبادل من الذات؟ ثم طرد الفكرة من جديد. طردها عندما تذكر أنه لم يُعط الحاج عثمان الصورة التي حملها معه لشقيقه، فكيف يعرفونه دون تلك الصورة؟

ومدّ يده إلى جيب صدره يتفقد الصورة. لكنها كانت صورة قديمة ليافع وسيم الطلعة، أبيض اللون، لا بد أن السنين غيّرت فيه كثيراً فما عادت هذه الملامح ذاتها، وساءه أنه هو أيضاً لا يذكر شقيقه جيداً، وحتى لو رآه الآن دون أن يكون قد تغير فلن يتعرف إليه ، إنه يتذكره فقط مثل حلم قديم والصورة التي معه لن تفيد في شيء، ومع ذلك نادى سائق سيارة آخر في الطريق وطلب منه الإسراع إلى مكتب الحاج عثمان.

فوجئ الحاج عثمان بعودته: «لم تمض ساعتان يا رجل، ألا يمكنك أن تفعل شيئاً غير العودة إلى هذا المكتب؟».

وضحك هو أيضاً: «لقد عدت يا حاج لأنني تذكرت أنني لم أعطك صورة شقيقي». ثم وضعها أمامه على الطاولة الخشبية العتيقة.

لكن الحاج عثمان لم يلتفت إليها. بل وقف كأنه يعلن شيئاً مهماً: «لقد تلقيت برقيةً مطوّلة من الفرنسيين». ثم مدّ يده إلى جيب عباءته وقال: «اقرأ».

ـ «بالنسبة إلى برقيتكم رقم 6478 في شأن سالم رشيد بكري نفيدكم أنه لم يعد له وجود في السجلات الفرنسية منذ 5 شباط (فبراير) 1960عندما سرّح من الجيش الفرنسي لأنه رفض القتال في الجزائر. وفي آذار (مارس) 1960غادر طولون إلى السنغال وهذا كل ما استطعنا الحصول عليه من معلومات، كذلك نفيدكم أنه انضم إلى الجيش الفرنسي

في بيروت عام 1945 وتبيّن فيما بعد أنه قدم هوية زور فيها سنه واسم والدته لكنه لم يطرد بعد ذلك، وخلال هذه الفترة رفض أن يبذل ما من شأنه أن يعلي رتبته: ولذلك نقل كطاهٍ إلى طولون، وظل هناك حتى تمرده وصرفه من الخدمة. وقد حاولت السلطات الفرنسية بعد ذلك العثور عليه من أجل أن تزوده براتبه التقاعدي لكنها لم تفلح، كما أنه لم يتقدم أي سلطة أو مسؤول فرنسي منذ ذلك الوقت. ولذلك اعتبر مفقوداً!

وتنتهي البرقية عند عشرين عاماً إلى الوراء دون أن تلقي أيّ ضوء جديد، لكن ماذا عن هذه الأضواء القديمة؟ لقد هرب شقيقه إذن مع الجيش الفرنسي. لقد كانت هذه. الوسيلة الوحيدة أمامه كي يهرب دون أن يطلب مساعدة أحد. هرب وانتهى الأمر وراح يدخل في حلقة الهرب. وإلا لماذا لم يعد؟ لماذا لم يكتب؟ بل لماذا لم يغفر؟ ألا تستحق أمه الغفران بعد هذا العذاب الطويل؟ ألم تحن ساعة الغفران بعد؟ لماذا لم يعد؟ إذا كان متعلقاً ببلده بحيث يرفض الخدمة في الجزائر وهو مجرد طاه في الجيش فلماذا يفقد كل صلة أخرى ببلده؟ هل يكرههم إلى هذا الحد؟ هل يكره عائلته إلى هذه الدرجة؟

ونظر إلى الحاج عثمان كأنه يبحث عن أجوبة في عينيه، لكن الحاج راح يذرع الغرفة ويقلب شفتيه مستسلماً. هو أيضاً تحيره هذه القضية، وما يحيره أيضاً هو إلى أين ينطلقان من هنا؟ الفرنسيون يقولون إنهم لا يعرفون شيئاً عنه منذ العام 1960، وهذا زمن طول الآن. وإذا كان جاء من طولون إلى السنغال حقاً فهل بقي أيضاً في السنغال أم أنه ذهب منها إلى مكان آخر؟ وتساءل الحاج عثمان دون شك أيضاً لماذا يهرب رجل من

أهله كل هذا العمر من دون أن يلتفت إلى الخلف أو يقول كلمة واحدة. ماذا فعل هو؟ ماذا فعلوا هم؟ لكن القضية على تعقيدها وطرافتها بالنسبة إلى محامي «كاويلاك» النحيل لم تعد كقضية أخرى على رفوفه العتيقة. لقد عرف مهاجرين كثرين جاؤوا إلى هنا وجاعوا، وأبت عليهم نفوسهم العودة، وعرف كثر أيضاً وصلوا إلى ذروة المال ثم سقطوا وراحوا يبيعون الخرز والفستق على الأرصفة وجاءه أيضا أهل كثيرون يبحثون عن أبنائهم الذين يرفضون العودة، لكن سرعان ما عثروا عليهم وعادوا معهم. لكن هذه قصة محيرة دون غيرها، ولولا شعوره بالشفقة وبروح الزمالة لنفض يده منها، لكن كيف يقول لهذا المحامي الكبير الآتي من بيروت إنه لا يريد المضي في المسألة؟ لا. إنه يريد الذهاب بها حتى النهاية شرط أن يكون سالم رشيد هنا وليس في أوستراليا أو أميركا أو في بلد إفريقي آخر.

تطلع الحاج عثمان في ضيفه فرآه يضع رأسه بين يديه لاهياً. وقال في ذاته إنه أصبح أمام شقيقين ضائعين، أحدهم ضائع النفس والآخر ضائع المكان. وقال يخفف من حدة الخيبة:

«ها نحن على الأقل في بداية النفق. لقد عرفنا، على الأقل كيف غادر لبنان ثم كيف غادر فرنسا. اترك الباقي عليّ. أنا أتدبّر هنا البحث عنه في السنغال».

نظر إلي الحاج عثمان وقال له: «لكن كيف أعود إليها يا حاج؟ منذ عشر سنوات وأنا أعدها بأني سأعود به، كيف أعود إليها الآن؟ ماذا سأقول لها؟ أأقول إن الحاج سوف يتدبر الأمر وأن شقيقي في مكان ما في السنغال؟».

وقال الحاج في شيء من اليأس والدعاء معاً: «ليس أمامنا سبيل آخر يا صديقي وليس بإمكانك أن تبقى بعد في هذه المدينة، قم وتوكّل واترك القضية لي... وأنا أعدك بأني سوف أنوب عنك هنا».

الحلقة الخامسة

عاد إلى الفندق الصغير للمرة الأخيرة عابراً تلك المساحة العابقة بالقيظ والبائعات ذوات الأوراك الكسلى، والنخيل. لقد قرر أن يترك الأمر للحاج عثمان لأنه لا حل آخر أمامه، لا يستطيع أن يمضي بقية العمر في «كاويلاك»، يشتري بضع حبات الفستق في الصباح وحبات أخرى في المساء، لا. إنه سيعود فوراً إلى بيروت، ولن يعود أيضاً عن طريق باريس، إذ كل ما يريد أن يعرفه من باريس قد عرفه الحاج عثمان. إذن، إلى بيروت مباشرةً.

وقبل أن يدخل الفندق تذكر بائع الفستق مرة أخرى. وتوقف عنده واشترى كيسا صغيراً من الفستق الحار، وقال وكأنه يعرفه منذ زمن طويل: «أنا مسافر غداً إلى بيروت، هل تريد شيئاً من هناك؟».

وراح البائع يفرق الفحم على الطبق أمامه ويسند إحدى رجليه المتعبتين إلى الجدار: «شكراً. لكن ماذا يمكن أن أريد من بيروت، لقد عرفت كثيرين من لبنان لكنني الآن نسيت أسماءهم. في أي حال، سلم لي على بيروت».

وقرر أن يقتل الكثير من الوقت بالحديث إلى البائع الطيب، الضائع الملامح، ولاحظ للمرة الأولى أن الرجل أسمر اللون لكنه ذو ملامح غير سمراء فخطر له أن يسأله: «هل أنت من السنغال في الأصل؟».

وتلعثم الرجل قليلاً. وقال له بالفرنسية: «لا. دعني أقول لك شيئاً ما. الواقع أنني من عنّابة في الجزائر. وقد هاجرت إلى هنا منذ زمن طويل. أنا سنغالي على كل حال..».

لماذا لا يسأله عن شقيقه، إنه يسأل كل الناس عنه. ثم تذكر أيضاً أن إحدى الروايات قالت إنه كان فقيراً يستجدي في داكار؟ فتوقف قليلاً وقال للبائع: الحقيقة: أريد أن أسألك لكنني لا أدري كيف، إنّ لي شقيقاً ضائعاً أبحث عنه لا أدري إن كنت صادفته ذات يوم في السنغال».

صمت البائع، أما هو فأكمل حديثه لأنه ارتاح للرجل:

«لقد تركنا أخي يوم كنت صغيراً وسافر إلى المجهول. والآن قبل لحظات فقط عرفنا أنه هرب إلى فرنسا وبعدها إلى السنغال. وسمعنا رواياتٍ كثيرة، لكننا لا نزال نبحث».

وراح بائع الفستق يحرك الجمر والفحم مثل حجارة الشطرنج ثم يعض على شفتيه، وأخيراً قال:

«من أين لي أن أعرف شقيقك. إنني أكاد لا أعرف أحداً في هذه الساحة منذ زمن طويل. لا. للأسف لست أعرفه».

أخذ كيس الفستق من البائع ودخل إلى الفندق. وقام موظف الاستقبال من وراء مكتبه ليسلمه برقيةً من بيروت ما إن فضها حتى عرف أنها من أحد الموكلين الثقلاء الذي اعتاد أن يقاضي جميع الناس. حمل البرقية وصعد إلى غرفته ونام، وفي اليوم التالي وجد الحاج عثمان في انتظاره ومعه السيارة التي سوف تقلّه. وقال الحاج عثمان ضاحكاً كالعادة: «آه،

على الأقل رأيت السنغال. ما الذي كان سيأتي بك إلى هنا لولا شقيقك؟ اترك المسألة لي. سوف أبذل كل ما أستطيع».

بالفعل شعر بالكثير من الاطمئنان إلى الحاج عثمان وإلى أنه سيفعل شيئاً ذات يوم، لكنه كان قد قرر الليلة البارحة أن يترك كل قضية أخرى بين يديه وأن ينصرف إلى البحث عن شقيقه، لقد جمع ما يكفي من المال ويزيد، وقد حان الوقت للبحث عن الشيء الوحيد الضائع في هذه الحياة: شقيقه.

ودّعه الحاج عثمان إلى باب السيارة. وتلفت وهو يفتح الباب، بصورة عفوية إلى حيث بائع الفستق فوجد الزاوية خالية، وشعر بشيء من الحزن لأنه لم يتسنّ له أن يودّعه، لكن السائق ما لبث أن قطع عليه كل شعور حين راح يثرثر ويقهقه طوال الطريق.

حين غمرته أمه بذراعيها الواهنتين عرفت من ملمسه أنه عاد خائباً فلم تسأله شيئاً، وضع حقائبه عند المدخل وعادت هي إلى النافذة، إلى منفاها داخل البيت، وذهب فوراً ليغتسل من حر «كاويلاك» وقيظها. لكنه وهو يشعر بالغبار يتساقط عنه تناهى إليه صوت المدافع والرشاشات تتداخل ببعضها، فقال في نفسه إنه قد نعم بالهدوء على الأقل في تلك البلدة الإفريقية الصغيرة، ولم ينتبه إلى نفسه إلى الآن أنّ ثمة حياة من دون مدافع وأن ثمة هدوءاً حتى في السنغال. غير أنه يفضل بيروت مع مدافعها. إنه يقيم علاقة غريبة مع هذه المدينة، مع البحر، مع الشاطئ مع الجبل، وحين يجلس أحياناً يتأمل الأفق البعيد أفق السفر، سرعان ما ينقل عينيه إلى الحصى اللماعة التي تبدو له مثل لآلئ تنعكس عليها زرقة

المتوسط، لذلك لم يخطر له مرةً واحدة أن يهاجر إلى مكان إنه في حالة عشق مع مدينة، أما إذا اختارت هي أن تنتحر فهذا شأنها. سوف يظل يتمسّك بردائها حتى آخر قطعة منه، لم يكن يستطيع أن يتخيّل نفسه في مدينة أخرى أو بلد آخر. وتساءل وهو ينظر من نافذة إلى البحر: هل هذه ردة فعل على غياب شقيقه أم مجرّد لبيروت؟ هل هو عشق للمدينة أم حب لهذه الأم الحزينة الساكنة في النافذة؟..

وخطر له أنه سيبدأ غداً نهاراً جديداً فأين يبدأه وكيف؟ هل يذهب إلى السفارة الفرنسية ليقدم الدعوى من جديد؟ هل يذهب إلى الخارجية اللبنانية؟ وماذا لو لم يكن شقيقه هنا أو هناك؟

بل ماذا لو كان في بيروت نفسها؟ من يؤكد أنه ليس في بيروت الآن وقد عاد سراً أو بجواز سفر فرنسي؟ وأخذت وجوه كثيرة تدور في مخيلته، لكن لم يستطع أن يتبين بينها ملامح شقيقه ولا وسامته. إنه يذكره الآن شيئاً مثل الخيال، مثل الظل، يذكره شاباً فارعاً أبيض اللون، بالغ الوسامة، ويتذكره دائماً وحيداً ومنفرداً، جالساً على الشرفة إلى ذاته، يقرأ أو ينظر إلى البعيد، عبر الأودية والمدن.

اغتسل وخرج. ورأى أمه كالعادة عند النافذة. شعر أنه لا بد أن يقول لها شيئاً ما. فتمتم ببعض الكلمات. وقال لها إن المسألة الآن في يد الحكومة السنغالية.

لكنه لن يوقف البحث من لبنان، وكان يعرف أن كل هذا الكلام لا يعني لها شيئاً لكنه قاله على كل حال. قاله وخرج إلى الأصدقاء كالعادة ينسى معهم أمسه ويبني معهم ذكريات للغد!

عاد من السنغال وهمه الأول أن يذهب إلى «الأستاذ»...

لقد كان مقتنعاً في قرارة نفسه بأن هذا الرجل يحمل السر الكبير وراء رحيل شقيقه أو على الأقل يعرف شيئاً عنه.

لكن أين يذهب إليه الآن؟ لقد كان يشاهده باستمرار لأيام «العدلية» مع أن «الأستاذ» لم يكن يذهب إلى هناك إلا هكذا للتسلية ورؤية الأصدقاء فالجميع يعرفون أنه أوقف العمل ولم يعد بحاجة إلى المزيد من المرافعات. لقد ملأ المحاكم مرافعات، ودفاعات ناجحةً في أيامه والآن قرر أن يباشر التقاعد.

ثم مع الحرب، اختفت العدلية واختفى هو أيضاً.

ترى، أين هو اليوم؟

أمسك بالهاتف وراح يتصل بالزملاء، وبعد قليل أبلغه أحدهم أن «الأستاذ» لاجئ في أحد فنادق الجبل، فأغلق السماعة، وودع حبيسة النافذة واتجه إلى سيارته. لكن ماذا سيقول «للأستاذ»؟ كيف يفاتحه بالأمر؟ من أين سيبدأ؟ هل يمكنه أن يقول له... ما علاقتك بهرب أخي؟ هل له علاقة بذلك على كل حال؟ وكيف يدينه سلفاً وهو محام بل كيف يسمح لنفسه بأن يدين أمه؟

إذن، لماذا هو ذاهب إليه؟ ماذا يقون له؟ هل يعود؟ لا. يذهب إليه.

الحلقة السادسة

ووصل إلى الفندق الجبلي فوجد «الأستاذ» منفرداً بنفسه على الشرفة الكبرى يلتف بعباءة حريرية سوداء ومعه، كالعاده، كتابه. وعندما أيقظه من سكرة القراءة انتفض واقفاً مرحباً فسقطت منه نظارتاه لكثرة ما اعتبط.

وما إن دعا المضيف ضيفه إلى الجلوس حتى كان المحامي الشاب يقول في شيء من التردد:

- لقد عدت أمس من السنغال. كنت هناك بحثاً عن أخي لكني لم أوفق. إننا نتابع القضية على كل حال.

وقال «الأستاذ»:

خير. خير. أتمنى لك كلّ توفيق، لقد ترك أخوك حسرةً في قلوبنا جميعاً، الحسرة الكبرى كانت لي وأظنك لا تجهل ذلك!

حسرة لك؟ لماذا؟

ونظر «الأستاذ» أمامه عبر أودية الصنوبر المتلاحقة وقال: اسمع يا بني، أنا أعرف جيداً ما الذي يجيء بك إليّ في اليوم التالي لوصولك من السنغال. وأعرف جيداً ماذا يدور في خلدك. إنك هنا لتستمع إلى قصة محاها غبار الزمان، قصة حب لم تكن، ومأساة حب لم يوجد وحكاية رومانسية انتهت مأساة، لذلك اسمع لي بكل التفاصيل . لا بد من التفاصيل

في الاعتراف، اسمعني جيداً يا بني. ذلك طيلة ذلك قرعت جرس الباب ووقفت أنتظر، وبينما أنتظر أن يفتح لي رحت أدقق في مظهري من جديد وبالكثير من القلق، كنت قد ارتديت أفضل طقم لدي وربطة العنق العنابية اللون والقميص الأبيض الذي تلف أمي طوقه كل مرة بنشاء أصيل، وكنت أنتعل كذلك حذاءً أسود، لماعاً، جعلت في طرفيه «ميالة» حديدية تشبه نضوة الحصان لكي لا يهترئ نعاله بسرعة.

وارتجفت قليلاً، لقد كان هذا أفضل ما عندي، لكنني خشيت أن أبدو مضحكاً بعض الشيء، وساورتني مخاوف بأن الخادمة ستكون أول من يضحك عندما تفتح الباب ويتبدى لها رجل، مثل كتاب مفتوح : فلاح في المدينة! وتساءلت : كيف ستعلن عني لسيدتها وبأي طريقة : في الباب رجل يرتدي ثياب الأعياد لأنه لا يملك غيرها؟

وبدت لحظات الانتظار دهوراً من الترقب، وخفت ألا أكون قد قرعت الجرس جيداً عندما تأخرت الخادمة. فهذه أول مرة أضع فيها سبابتي على جرس باب في هذه الضخامة، ولولا أنني أستخدم أحياناً المصعد الكهربائي الصدئ في المكتب حيث أعمل، لكان هذا أيضاً أول مصعد استخدمه في حياتي، لكن يا إلهي كم الفرق عظيم بين المصعد في ساحة المعرض وبين هذا المصعد الذي تفوح منه رائحة الخشب المدلل كأنما غُسل بالعطور، أو كأنه كلما غسل بالماء فاحت منه رائحة شبيهة بالبخور الراكد.

والواقع أني لم أطرح التساؤل حول مصعد المكتب قبل الآن، لم يكن هناك شيء أقارنه به، بل إنني كنت أرتضيه كما أرتضي المكتب نفسه،

وكما أرتضي الحياة كلها. لم تكن هناك أي مقارنات، فقد كنت في أول السلم، لم أصعد أي درجة منه بعد. لأنظر من فوقها إلى أسفل. وكنت في بداية الحياة . وفي بداية الطموح، بل الحقيقة أنه لم يكن قد تسنى لي بعد أن أرتاح لأفكر في أي طموح، كان كل ما أريد تحسين حياتي اليومية، وأن أنتقل ذات يوم من هذه الغرفة الرطبة التي استأجرتها . طالباً ، على شاطئ البحر ولا أزال أقطنها بعد عام تقريباً على تخرجي من كلية الحقوق.

فُتح الباب برفق، فتحةً كاملة. ووقفت بين الدفتين امرأة مذهلة العذوبة. وخيل إليّ أولاً أنني أقف على باب مدرسة داخلية لا على باب أجمل سيدة في بيروت. فقد كانت ترتدي فستاناً كحلياً وقميصاً أبيض مفتوح العنق، وكانت تربط شعرها الضائع بين الأشقر والكستنائي، بين الطويل والقصير، بشريطة بيضاء على شكل فراشة، وابتسمت في كثير من الترحيب والتهذيب:

- تفضل!

ورحت أرتعش وأنا أدخل خلفها، أعد خطى طويلةً إلى البهو الأنيق الذي ظلت جدرانه عاريةً من اللوحات، لكن طاولاته امتلأت بصور أفراد العائلة بكل أجيالها العريقة.

وعادت تتأهل بي:

لكني لم أعرف. أي مقعد أختار، وترددت. ورحت أفرك يدي واقفاً بانتظار أن تنقذني من حيرتي فكأنها شعرت بذلك فأشارت إلى أحد الكراسي الزرقاء الضخمة في صدر البهو، فجلست وأنا أتمتم كلام الاعتذار، وأقول أشياء لا أفهمها، وهمت هي بالجلوس لكن الخادمة دخلت علينا كمن حان دور أدائه على المسرح

نظرت إلي «الست» وسألتني:

- ماذا تشرب؟

- قهوةً. سيدتي.

كانت الخامسة عصراً. ونظرت من النافذة الزجاجية العريضة فبانت لي بيروت وكأنها لوحة معلّقة على جدار من زرقة السماء وزرقة البحر. وإذا مالت الشمس إلى الغروب جعلت كل شيء يبدو وكأنه باهت لها: الجبل الناعس فوق المياه، الشرفات العتيقة، السطوح المتلاصقة، وهذا الفيْء الذي يدخل من نافذة الدار في شكل ظل طويل مرمي على الأرض كأنه هالة تسحبه «الست» خلفها كيفما شاءت.

لم أطلب فنجاناً من القهوة لأن الوقت كان وقت قهوة بل فعلت ذلك لأني لم أكن أعرف شيئاً آخر من مباهج الضيافة: فاكهة القرية التي كنت أحملها معي إلى غرفتي، وقهوة «أبو جميل» تحت درج المكتب في ساحة المعرض.

ومنذ أن تركت كلية الحقوق وبدأت العمل، متدرجاً، أصبحت قهوة «أبو جميل» شيئاً من صباح الخير كل يوم، ما إن يلمحني صاعداً، حتى يرد تحية الصباح قبل أن أطرحها عليه، ثم يرفقها فوراً بصرخة إلى نادله: «قهوة مظبوطة للأستاذ يا صبي». «ثلاثة ع الريحة لمكتب القوميسيون». «اثنين قهوة للخواجه كريكور».

كانت تطربني كلمة «الأستاذ». وكان أبو جميل يدرك ذلك فينعم بها علي تكراراً ومراراً. أما في المكتب نفسه فكان هناك أستاذ واحد هو

«الأستاذ الكبير». إنه المحامي الذي نعمل جميعاً في خدمته وصاحب الاسم الذي سنحمله ذات يوم عندما نبدأ المحاماة لحسابنا. لذلك كان للمحامين الأربعة الذين يتدربون لديه أسماء علم أما هو فكان اسمه «الأستاذ الكبير»! وكان في الواقع رجلاً جليلاً يستحق اللقب كاملاً. إذ من مكاتبه العتيقة المليئة بالرفوف الحديدية والملفات القديمة، خرج إلى قصر العدل العشرات من المحامين الناجحين. وبسبب وقاره صرامته نجح الكثيرون ممن وقفوا أمام القوس. وكنا نتحدث إليه مرة واحدة في اليوم على الأكثر. ثم يغلق الباب على نفسه ويغرق في ملفاته بعد أن يوزع العمل.

ولم أنتسب إلى مكتبه أو مدرسته بسهولة. فقد كان صديقاً لنائب المنطقة الذي طلب منه والدي التوسط لديه وأنا لا أزال في السنة الأولى من دراستي الحقوق. وعندما جئت إليه ومعي توصية من بعض الأساتذة كان سعيداً أنني كسبت الانتساب إلى «المكتب» بمقدرتي لا بالواسطة فقط. لكن بعد اللقاء الأول توقفت أي علاقة «اجتماعية» بين الأستاذ الكبير وبيني. وكنت أصل في الصباح فأجده قد سبقنا وأغادر في المساء يكون لا يزال غارقاً في أوراقه. فأكتفي عندها بتحميل التحية إلى سكرتيرته: «تصبحين على خير. وطاب مساء الأستاذ الكبير».

لكن بالرغم من ذلك فإنني كنت أعرف، من دون المتدربين الآخرين، فقد ربحت ثقته. وكنت أعرف ذلك من نوعية القضايا التي يكلفني بها وليس بسبب أهميتها وإنما بسبب موقفه العاطفي الشخصي منها. فقد كانت في معظمها قضايا تتعلق بأصدقائه من الشخصيات البارزة في البلد. ولذا فإنه عندما أوكل إلي ملاحقة إحدى دعاوى «الست» أيقنت أكثر من أي وقت مضى مدى ثقته بي.

كنت قد سمعت مراراً كثيرة لقب «الست» في المكتب، وخيل إليّ لفترة أنها شخص غير موجود، لأن أحداً لم يشر إليها باسمها الحقيقي، غير أنني تأكدت من وجودها عندما أخذت بعض الملفات تمر بي، وكانت كلها قضايا إرث أو أراضٍ أو عقارات جديدة، وظننت أن الست أرملة لأن جميع المعاملات باسمها. لكن سكرتيرة «الأستاذ الكبير» أوضحت لي أنها هي زوجة محام آخر وأنها وريثة ثروة كبيرة: ولأن مكتب زوجها لا يتعاطى سوى المسائل الجنائية، فقد أوكلت إلى «الأستاذ الكبير» كل قضاياها التجارية وها هو يوكل كل هذه القضايا إليّ...

لقد استدعاني فجأةً ظهر أحد أيام الأسبوع وقال لي باقتضاب إن «الست» قد طلبت إليه شخصاً يتخصص في إدارة شؤونها المالية والعقارية، ثم أضاف بابتسامة نادرة: «لم أتردد في اختيارك. أولاً لمقدرتك وثانياً لأمانتك. إن الست ليست مجرد موكّل من موكلي المكتب أنها صديقة كبيرة أيضاً».

وفي ضحكةٍ فريدة من نوعها في تاريخ المكتب أضاف «الأستاذ»: إنها نصف البلد فاذهب واثبت أنك على قدر هذه المسؤولية».

ـ كانت تلك المهمة بمثابة ولادةٍ جديدة لي: أول مهمة خارج قصر العدل. أول موكل أقابله بنفسي، أول بيت أدخله في بيروت بعد سنوات عدة من الكد والدراسة والأمسيات الطويلة في الغرفة الرطبة على ضوء مصباح كهربائي عارٍ. لقد نزلت إلى بيروت واعداً أهلي بأنني لن أعود إليهم إلا محامياً، وهكذا كان. ولم يكن في قدرتهم أن يصرفوا عليّ أو على تعليمي لذلك قررت أن أكافح بأي ثمن، وكان الثمن الأكبر هو نظرة

رفاقي إلي. كانوا يضحكون في السر، وأحياناً في العلن، من الطقم الوحيد الذي يتكرر عليّ كل فصل وكل عام، وكانوا يضحكون من صوت المعدن في حذائي. وكانوا يضربون بي المثل. لكنني كنت أتحمل، لن أنكث الوعد الذي أعطيته لأهلي بأن أتعلم، وأعلم أخوتي الصغار، وأن نطرد معاً شبح الفقر الذي يحوم فوق منزلنا الطيني منذ دعيت إلى الحياة.

وقد اشتريت لنفسي بعد شهرٍ واحد من بدء العمل هذا الطقم الكحلي اللائق. لكنه يبدو مضحكاً الآن. إنني أبدو وكأنني ذاهب إلى سهرة وليس لمقابلة قانونية. وهذه الربطة العنابية اللون أيضاً، وقد ضحك زملائي في المكتب من مظهري. ولا شك أنهم تبادلوا التعليقات وأنا في طريقي إلى منزل «الست». لكن ما يهم.

بعدما طلبت لي القهوة، جلست على طرف المقعد المقابل وعقدت ساقاً على ساق، ثم شبكت يديها فوق ركبتيها كأنها تغطي بعض الجمال بأكثره. وابتسمت من جديد، يا إلهي كيف تبتسم. وتجمعّت على نفسي مثل أحدب ابن الرومي كأني أصد عني شيئاً ما. وانتظرت أن تبدأ الحديث بأي سؤال. انتظرت أن تدخل في الموضوع مباشرة، فوضعت الملفات على ركبتين راجفتين استعداداً للإجابة، ومددت يدي إلى جيبي الأمامية فأخذت منها القلم الحبر لكن الست نظرت إليّ وقالت:

كيف كان شعورك بالاستقلال؟

وهزّني السؤال. كنت قد نسيت تماماً أن البلاد لا تزال في اليوم السادس من احتفالاتها بالاستقلال. كنت مأخوذاً بعملي. وكنت أعتبر أن «الاستقلال» شأن من شؤون الكبار والوجهاء في البلد، وأن علينا نحن

الصغار ألا نتعاطى في المسألة: لذلك شعرت بشيء من الاعتزاز عندما سألتني الست عن رأيي في الاستقلال.

وقلت كأني أكرر كلاماً من رواية:

- شي عظيم يا سيدتي. شيء عظيم.

إن الحرية لشيء رائع حقاً، لقد قرأت كلاماً لأناتول فرانس حول الحرية لا أذكره تماماً لكني أذكر..

وقاطعتنا الخادمة بفنجاني قهوة، فتنفست من أعماقي: لماذا هذا السخف؟ ما شأن أناتول فرانس في الموضوع؟ إنني أريد أن أعطي الست انطباعا حسناً، أنني مثقف!! وفجأةً التفت عبر البهو إلى الغرفة المقابلة فوجدت رفوفاً فوق رفوف من الكتب، كانت أكبر كمية من الفكر المكتوب رأيتها في حياتي خارج مكتبة كلية الحقوق، وها أنذا أتحدث بسذاجة عن أناتول فرانس وأنسب إليه كلاماً لم يقله ولم يكتبه، لماذا أناتول بالذات؟

وقامت «الست» بكل تهذيب فقدمت لي عن الصينية فنجاناً من القهوة ثم أخذت واحداً لنفسها وعادت إلى مقعدها، وكأنما عرفت ما بي من شعور بالندم والصغر فتناست حديث الاستقلال وباشرت في إنقاذي من العرق النفسي والجسدي الذي غرقت به:

- آمل أن تكون قد حلت الملفات السابقة معك، الحقيقة أننا نعيد النظر في كل شيء ونريدك من الآن محامياً شبه متفرغ لشؤوننا إذا كان ذلك لا يناقض مشاريعك للمستقبل .

وفكرت للحظات.

ولا أدري كيف استطعت أن أفكر.

الحلقة السابعة

أو بالأحرى أنني لم أفكر. فقد ذابت الحياة أمامي مرة واحدة وتحولت أنا المتشدد المتقشف حبيس الغرفة الرطبة على شاطئ البحر، إلى رماد مسحوق تحت عذوبة السؤال المفاجئ.

كان قبول العمل يعني أنني سأغرق كل الوقت في تفاصيل تافهة، وأن كل أحلامي القديمة بالوقوف أمام القوس خطيباً كالمحامين الكبار ستسقط أمامي وبسيفي أيضاً، ومن ثم فإنني سأصرف وقتي في مراجعة الأملاك والبنوك ومواسم القطاف والحصاد ونتاج البساتين. أما إذا رفضت معتذراً، فإنني لن أرى هذا الوجه مرةً أخرى!

وأحزنتني الفكرة. شعرت أن شيئاً جردّني من السعادة طوال العمر. كيف أتخلّى عن عرض من هذه السيدة العذبة التي كانت لا تزال ترتشف القهوة وكأنها فراشة ذات وردة واحدة ولون من ألف ربيع. إنني لو رفضت لأعطت الوظيفة إلى محام آخر. لم أطق الفكرة، دبت بي غيرة مرعبة وتخيلت صفاً طويلاً من المحامين يقفون عند الباب الخشبي البني العريض في انتظار أن أخرج ليقتحموا البهو ويقبلوا يد «الست» عارضين خدمتهم وخدماتهم، وقلت في صوت متهدج وأنا أضع فنجان القهوة على الطاولة:

- إن هذا شرف عظيم يا سيدتي، كيف لي أن أرفض مثل هذا العرض. لكن لعلني لست في المستوى الذي تريدين!

كنت أكذب بصدق واضح، وقبل أن تعلق، دلفت إلى البهو مندفعةً مثل نمرة صغيرة. طفلة في العاشرة من العمر. فغمرتها «الست» بحنو ثم همست في أذنها شيئاً ما. لكن الخادمة كانت قد سبقتها إلى ذلك فجاءت تعيد الطفلة إلى غرفتها وهي تعتذر:

«لقد غافلتني يا سيدتي كالعادة» .

فتبسمت «الست» وذاب نهر من العسل.

قبل أن تعود إلى الحديث معي رنّ جرس الهاتف الأسود طويلاً، وتركته يرن، فمضى عامل «السنترال» يرن من جديد، وأخيراً رفعت السماعة بهدوء لكن عامل السنترال بدا كأنه يقطن السماعة نفسها لشدة ما تكلم بصوت عالٍ: «هون بيروت 35؟».

فأجابت «الست» في هدوء: «بشارة وطّي صوتك. قلنا لك إذا ما فيك توطّي الجرس، وطّي صوتك».

وسمعت بشارة يصرخ مهتاجاً: «يا ستي شو بدي أعمل. هيدا القصر عالخط. شو بتريدي قلهم؟ شو بيقولوا الناس للقصر»!.

وعادت تقول له بكل هدوء، وكأنها لم تسمع كلمة القصر: «هس. بشارة. وطّي صوتك. أعطنا المخابرة».

ووضعت يدها على السماعة في خفر بينما أبقت الجزء الآخر منها على أذنها. وقالت هي باعتذار:

وسرعان ما غابت عني لترد على مكالمتها بالصوت الهادئ العذب ذاته. وسمعتها تقول: «لا. الأستاذ ليس هنا الآن. إنه في فندق صوفر الكبير إذا أردت الاتصال».

ـ حسناً. طبعاً. طبعاً. وهل يمكن أن نرفض دعوة القصر إلى العشاء. لا. سوف نلغي أي ارتباط آخر...»

ثم ضحكت ورسمت على وجهها ابتسامة طويلة بينما كان الآخر يقول في مسامعها أشياء بدت كأنها سياسية. وشعرت بالغيرة والحزن والتضاؤل مرة واحدة.

ماذا جئت أفعل في هذا المنزل؟ ماذا يربطني بهذا البيت؟ وكيف أسقط في لحظة واحدة في حب امرأة متزوجة تدخل طفلتها من باب ويدق لها القصر من هاتف؟

ولم أفقه تماماً أي قصر كانت تحدث. كانت هذه أول مرة أسمع فيها كلمة قصر من غير الإذاعة. لكن «الست» لم تكن تتحدث إلى «أي قصر» بل كانت تتحدث إلى القصر ذاته. ترى من الذي حدثها عن القصر؟ وهل كان المحدث يريد حقاً أن يدعو الأستاذ أم أن يدعو «الست» وحدها إلى العشاء لو استطاع.

لكن التقاليد...

ومددت كفي أمام عيني كأنني أطرد عنهما المشاهد المقبلة. ما لي و«للست» لم تمض نصف ساعة عليّ ومع ذلك فقد وقعت في حبها. وصرت أغار عليها وأصبحت أعتب إذا حادثها القصر.

من جديد أيقظتني بعذوبة من رحلة طويلة حول نفسي. وقالت وهي تضع السماعة:

- إذن. اتفقنا. على الأقل. من حيث المبدأ.

ودون نقاش أجبت:

- كما تشائين يا سيدتي.

وهل نعتبر أنك بدأت العمل معنا منذ الآن؟

- طبعاً.

- مزيد من القهوة؟

- لا . شكراً. ما زال عليّ أن أعود إلى المكتب لقد تأخرت.

وسألتها عمّا إذا كان هناك برنامج معيّن تريدني أن أتبعه، فقالت: لا نترك الأمور مرهونةً بأوقاتها، وتبقى الآن في عملك مع «الأستاذ الكبير». إننا لا نريد في الواقع أن نقطع عليك فرصة أي عمل آخر.

وفي هذه اللحظة بالذات دخل من الرواق رجل طويل القامة، وسيم الطلعة، وابتسم لي في وقار واتزان، فسألته الست وكأنها تكمل معه حديثاً سابقاً: «أليس كذلك»؟

وقال في تأدب جم وهو يمدّ يده لمصافحتي:

- «طبعاً. طبعاً. إنني موافق على كل ما تقرين».

لم تقدمنا إلى بعضنا، وكأنما كان يعرف بوجودي، وقد وقفت متعثراً بحالي أمام هذا الرجل العملاق الذي بدا الشيب يخالط تسريحة شعره الأسود الكثيف، فشعرت أن شيئاً من الطيبة يتسرّب مع العرق من يده الضخمة، لكنه لم يزد على كلامه لفظةً واحدة، بل قبل زوجته من جبينها ومشى، وبقيت واقفاً بينما اتجهت هي إلى الباب الخارجي لتودعه: لماذا

قالت للقصر إذن إنه غير موجود؟ هل يكبرها هذا الرجل الطيب بكثير أم أنها من النوع الذي لا يبدو عليه أثر السنين؟ لماذا لم يجلس معنا؟ هل قرأ ما بي؟ هل عرف ما بي؟ هل سيضحك مني وهو في الطريق الآن إلى مكتبه؟ كم تبلغ الست من العمر؟ لا. لا. تذكرت الآن. هناك أيضاً صبيان وبنت أخرى.

وبقيت واقفاً إلى أن عادت من الباب. وقلت في اعتذار: «إذا سمحت لي الست فأنا أيضاً أود الانصراف قبل أن يغلق المكتب» وابتسمت. يا إلهي لقد ابتسمت. ومدت يدها تصافحني مودعةً. ولاحظت للمرة الأولى لون وجهها الهادئ مثل همس الحور. وكانت فيه أيضاً بقعة أو بقعتان من الكحل الأزرق القاتم. لكني سأكتشف فيما بعد، عندما يتسنى لي أن أطيل النظر في وجه الست الناعم، المستطيل، أن ذلك لم يكن كحلاً بل وشما طبيعياً من تلك المنحوتة البشرية التي تبدو وكأنها قدمت من جنة.

رافقتني إلى الباب : «تشرفنا بمعرفتك أستاذ».

وكانت تلك أول مرة يناديني أحد فيها بهذا اللقب خارج القرية وباستثناء أبو جميل: واحد قهوة للأستاذ!! أي أستاذ؟! هو هذه الكتلة البشرية التي دخلت إلى المصعد وفي رأسها ألف سؤال ألف حب وألف يأس.

خطر لي وقد صرت في الطريق العام ألاّ أذهب إلى المكتب ذلك المساء. لقد صغر كل شي، وتغيّر كل شيء . وبدلاً من أن تكون تلك ساعة فرح شعرت بشيء كثير من الغم، كنت أعرف أنني أدخل إلى عالم ليس عالمي وأنني سوف أغرق، بشكل عبثي، في حب امرأة لا يسمح لي أحد حتى أن أحبّها. ورنّ جرس «الترام» عند المحطة فعدوت إليه، حاملاً حقيبتي

الجلدية الصغيرة المضحكة مثل تلاميذ المدارس، وقفزت من الدرج إلى الداخل، بينما كان يقف قاطع التذاكر ضاحكاً، يده على حقيبته هو الآخر كأنما كان في استقبالي.

القطارات الذاهبة إلى ساحة البرج في تلك الساعة كانت شبه فارغة تقريباً، فالناس كلهم عائدون إلى منازلهم من «المدينة»، كما كنا نعرف تلك المنطقة من بيروت، وقد عثرت بسرعة على مقعد خشبي خال فجلست عليه. وخيّل إلي أن الركاب القلائل في «الترام» ينظرون إليّ جميعاً نظرة تعاطف، وأنهم لو استطاعوا لاقترعوا حول قضيتي أيضاً. ومضى الترام في طريقه الحديدية وأنا أحملق في البيوت العتيقة المضاءة على الطريق. وكانت السيارات القليلة الضخمة الهياكل، المحدودبة الأشكال، تتسارع كأنها على موعد واحد، ثم انهمر المطر قليلاً فوقفت أغلق النافذة، فعلّق راكب من الجانب الآخر «هذا تشرين يودع. لقد بدأت بشائر الشتاء». وهز الآخرون رؤوسهم بالموافقة وكأنهم يشاركون في الحديث، ووافقته أيضاً بشيء من التمتمة، ونظرت من النافذة فإذا بيروت تتلألأ بين النور الخافت وبين الاغتسال من غبار الصيف، واقترب مني قاطع التذاكر النحيل الضامر، وقد رفع قبعته الكاكية عن جبينه، كأنه يمسح بمقدمتها الجلدية عرق النهار ويستعد للراحة ذلك المساء وقال: «تذكرتك، أستاذ».

قالها في طيبة ووداعة وهو يتأمل طقمي الكحلي وحقيبتي المهترئة. وخشيت أن أفقد هيبتي لديه إن أنا أعطيته قطعة الخمسة قروش المعدنية فمددت يدي إلى جيبي وأعطيت ورقة النصف ليرة، فأخذها وراح يعد لي البقية، قروشاً فوق قروش، فيما رنّ جرس الحافلة إيذاناً بالوصول إلى ساحة البرج.

وعدوت راكضاً نحو المكتب. وفوجئت لدى وصولي بالسكرتيرة تقول لي «الأستاذ الكبير في انتظارك». ودون أن تسألني رأيي أو أنتظر جواباً قامت إلى باب «الأستاذ الكبير» ففتحته وقالت لي بشيء من الصلف: تفضل!. ثم نظرت إليه بارتياح وكأنها تسلمه مطلوباً كان يبحث عنه. وابتسم لي الرجل الوقور كما لم يفعل كل مرة من قبل وقال:

- خير، لماذا تأخرت؟

قلت: «آسف لكن المقابلة مع الست طالت قليلاً ثم كان علّي أن أنتظر الترام».

وأجاب كأنه يريد أن يختصر موضوعاً طويلاً: «لا بأس. لا بأس. كيف كانت المقابلة مع الست؟ هل تم الاتفاق؟».

قلت: «نعم. لقد عرضت علي الست أن أتفرغ لأعمالها من خلال المكتب وقد رحبت طبعاً!

- حسناً يا بني، أتمنى لك التوفيق. قالها وكأنه ينبئ بانتهاء المقابلة فوقفت معتذراً لأتجه إلى طاولتي العتيقة فيما سمعت الأستاذ الكبير يرفع سماعة الهاتف ويطلب «السنترال». «بيروت 35من فضلك!».

عرفت أنه سيطلب من الست تقريراً عن رأيها في الموضوع. رأيي ليس مهّماً، موقفي ليس مهماً، انطباعي ليس مهماً، مستقبلي ليس مهماً. راتبي ليس مهماً، كل تلك السنوات الطويلة التي قضيتها بين كلية الحقوق وبين تلك الغرفة الرطبة الباردة على البحر، ليست مهمة هي أيضاً.

واندفعت إلى طاولتي مبللاً بماء المطر وماء اليأس. ودون أن أتطلع إلى زملائي في القاعة شعرت بعيونهم كلها ملقاةً علي. وخاصةً عيني «فؤاد» طبّاع الآلة الكاتبة.

وفتحت حقيبتي وأدراجي ثم نظرت حولي فإذا الجميع ينظرون إليّ وقد أسندوا رؤوسهم إلى أيديهم، وكان فؤاد الأكثر خبثاً بينهم . لقد رافق المكتب منذ اللحظة الأولى ورافق «الأستاذ الكبير» منذ سنين، كما تحكم بكل متدربٍ مر في هذه القاعة. لكن لماذا هذه النظرات إلي؟

- ماذا قال لك الأستاذ؟

قلت: لا شيء. لماذا تسأل؟

وضحك الجميع وعادوا إلى أعمالهم. وارتفع صوت الآلة الطابعة تحت أصابع فؤاد وكأنه يعزف السمفونية التي ألّفها بتهوفن بعد إصابته بالطرش. وفهمت كل شيء. أو هكذا خيّل إليّ.

إذن. «الأستاذ الكبير» أيضاً من الغارقين في حب عذري مع «الست». هذا الرجل المتهدل المتزمت الإسبارطي المتقشف الذي يشرب فنجاناً من القهوة طيلة النهار ولا يغيرّ لون طقمه طوال السنة ولا يستمع إلى نكتة ولا يتقبل دعابة، ولا يحادث سائقه إلا ليلقي عليه تحية المساء. ويستقبل أولاده في المكتب خوفاً على وقاره، هذا «الأستاذ الكبير» إذن من الذائبين في «الست». فلماذا لا أغفر لنفسي أنا الذي لم أقترب من امرأة إلا في بوسطة أو حافلة كهربائية، أني وقعت في حبها منذ اللحظة الأولى؟

لم أشارك زملائي ضحكاتهم. تصنعت بأنني أنجز بعض الأعمال ثم لملمت أوراقي وقلت: تصبحون على خير.

مشيت متثاقلاً تلك المسافة التي كنت أقطعها بخفة بائعي الصحف كل مساء، إلى الغرفة الصغيرة الرطبة عند شاطئ البحر، وراح المطر يهطل كأنه يحاول غسلي من الكآبة التي عصفت بي تلك العشية، وكان المارة القلائل يتدافعون هرباً من الرذاذ المتزايد فيما رحت أتباطأ كأن ثمة متعةً في إضافة الحزن الجسدي إلى الحزن النفسي. لم يكن لدى شك في أن هذه المشاعر عابرة. لقد مر الإعصار بالبحيرة فصارت هوجاء كالبحر مالحة كالبحر. وتحسست طعم الرذاذ على شفتي فوجدته مالحاً.

وعدت أتساءل: كيف يمكن أن يحدث لي مثل هذا الأمر؟ ماذا أقول لأبي غداً؟ كيف سأشرح له أنّ ظلاً آخر قد دخل البيت، ليقف بين إخوتي وبيني؟ ماذا أقول له وهو عائد في المساء، متعب من الكروم ليغطس ساقيه الضعيفتين في وعاءٍ نحاسي من الماء الساخن، لقد جعل ذلك الوعاء راحته الوحيدة: الباقي عناء وفقر. وبعد أن ينتشل قدميه من الماء الساخن وتأتيه أمي بخرقة ناشفة نظيفة، يفرك تعبه كأنه يطرده من أجل عناء اليوم التالي، ثم يقول لها، دائماً يقول لها: هل أحضرت «زوادة الصبي لهذا الأسبوع» وتهز أمي رأسها بحنو وهو تحمل الوعاء لترمي الماء الساخن في عتمة الخارج. إنها تريد أن تمنحه الحق في هذه الكبرياء. الحق في أنه يحب «الصبي» أكثر منها، والصبي هو أنا. أما أخوتي كلهم فلقبهم «الأولاد» الصبي اسم علم. إنه ركن البيت. هذه النظرة البعيدة التي يحملها الفلاح العائد من الكروم كل أحلام الأرض وكل دعوات السماء. هذه المرآة التي تجلس في زاوية المنزل العتيق، كل مساء، ترتب قميصاً ما

أو ترتق جورباً، أو تحيك كنزةً صوفية ما، المهم أن تفعل شيئاً، أي من أجل الصبي كل مساء. إن الصبي هو طقوس المساء في بيتنا.

وها هو الصبي وقد بلغ السادسة والعشرين من العمر، يمشي تحت مطر بيروت إلى غرفته ناسياً وعاء الماء الساخن، ناسياً تعب الكروم ناسياً الوعود التي زرعها في حديقة الدار لأهله وتلك التي رشها تحت الدالية الظليلة لأشقائه الصغار وهم يلعبون، ناسياً كل شيء، متذكراً شيئاً واحداً، متذكراً مخلوقاً واحداً متذكراً وجهاً واحداً وقامة واحدة وابتسامة واحدة: «الست»!.

لم أكن قد دخنت لفافةً واحدة في حياتي لكنني توقفت ذلك المساء عند البقال قبل أن أصل إلى البيت العتيق الذي كانت فيه غرفتي الرطبة وألقيت على الرجل تحية المساء، ثم طلبت علبة من «الزودياك» وتوقف الرجل كأنه لم يسمع جيداً، فأنا لا أطلب في العادة أكثر من كيلو من الخبز أو نصف كيلو من البرتقال السقط: لأن البرتقال الصيداني الشهي لم يكن في مقدوري شراؤه حتى في مواسمه، وابتسم البقال كأنه شعر بأنه ربح زبوناً من نوع آخر، فناولني علبة التبغ، وحاول للمرة الأولى، أن يفتح معي حديثاً جدياً، ورفع عن طاولته الخشبية صحيفة المساء قائلاً: هل شاهدت المظاهرة التي ذهبت إلى بيت رياض الصلح اليوم؟».

قلت: لا للأسف.

وكدت أن أخبره حقاً بما حدث ذلك النهار، أردت أن أحدث أيّ إنسان عنها، لكنني عدت فتراجعت.

ـ كانت تظاهرة عرمرمية، خذ، اقرأ، لكنهم يقولون إنها نكاية ببشارة الخوري. والبعض يقول إنها تزريكة «لبيت اده». يا خيي ما بعرف. ما بدخل بالسياسة .

وقلت في محاولة لإرشائه وإطالة الحديث:

ـ لكن يجب ألا نخاف بعد الآن، الاستقلال يعني الحرية.

وقال بلهجة الخبيث التذاكي:

ـ يا أستاذ عمهلك عالحرية، «السنغالية» بعدهم بالبلد، كل ليلة بييجوا لهون، بيندفوا سكرة عرق وخذني جيتك. قبل ما يفلوا من هون مرحبا حرية يا صاحبي. دخيلك وطي صوتك جواسيس الفرنساوية معلّقين عالحيطان...

وحاولت أن آخذ موقفاً محدداً من ذلك التاجر الذي انطلق لسانه لمجرد أني اشتريت علبة من التبغ. وقلت له:

ـ هناك تظاهرة إلى «رشميا» يوم الأحد تكريماً للشيخ بشارة، هل ستشارك فيها؟

وفرش الصحيفة أمامي فوق فتات الجبنة البيضاء والخبز وبذر الزيتون، ثم ضربها بكفه قائلاً، كأنه يتبرأ من كل شيء:

ـ يا خيي الحقيقة ما بحب العجقة. بعدين الواحد بدو يسترزق. شو إذا سكرنا وطلعنا فكرك الشيخ بشارة بكره بيدفعلنا. روح يا عمي خليهم يقبروا بعضهم. أنا سياسة ما بتدخل...

وفيما أنا خارج من الباب، تلاحقني رائحة الحبوب والبقول و«نعارات اللبن» لمحت على الجدار صور جنرالات فرنسا، وفي جانبها لافتة «الدين ممنوع والعتب مرفوع والرزق على الله».

والتفت إليه ضاحكاً:

- نزّل هذه الصور لم تعد تنفع! وتظاهر بأنه ينظف الطاولة أمامه ولم يجب.

الحلقة الثامنة

كانت غرفتي على بعد خطوات من البقال الثعلب. وكنت واثقاً من أنني سوف أرى في اليوم التالي صور بشارة الخوري ورياض الصلح معلّقة على جدار دكانه. فالواقع أنه كان بإمكان المرء أن يقرأ التغييرات السياسية اللبنانية على ذلك الجدار دون أن يقرأ الصحف، أو أن يستمع إلى «إذاعة الشرق» التي ستصبح الآن «الإذاعة اللبنانية». فقد كانت الصور ترتفع على ذلك الجدار وتسقط مع ارتفاع أصحابها وسقوطهم: المفوضون السامون والرؤساء على السواء. والصورة الوحيدة التي لم ينزلها كانت صورة الرئيس إميل اده؛ لأن الدكان كان في حي تكثر فيه جماعة «الكتلة الوطنية» كذلك غيّر جميع صور العسكريين الفرنسيين إلا صورة ديغول وكان يتباهى دائما بأنه صافحه ذات مرة قرب المتحف فيما كان الجنرال خارجاً على قدميه من «قصر الصنوبر» مع مجموعة من الضباط.

فتحت علبة التبغ لكنني تذكرت أنني لم أشتر صندوقة من الكبريت لم أرد العودة إلى البقال، وخطر لي للمرة الأولى منذ سنين أن أقرع باب ربة البيت وأن أمضي السهرة عندهم، كنت أخشى أن أدخل إلى وحدتي لأجد «الست» في انتظاري.

كانت صاحبة البيت سيدة أرمنية متقدمة في السن. وكان لها ثلاث بنات على شيء من الجمال، غير أنني كنت أتجنب دائماً اللقاء بهن. وكان الناس في الحي يشيرون إلى السيدة بكلمة «الأرمنية». قليلون الذين

كانوا يكلمونها. وكانت نساء الحي على ما يبدو يخشين ذات مرحلة على أزواجهن من هذه الحسناء، خصوصاً بعدما طلّقها زوجها وعاد إلى أهله في منطقة أخرى من بيروت.

وعندما نزلت للسكن في المدينة وجدت بمحض الصدفة غرفةً خالية عند «الأرمنية». كانت غرفة صغيرة، ضيقة، عتيقة الزجاج على سطح منزل من طابق واحد اسودت جدرانه الخارجية. وكان عليّ أن أتسلّق سلماً خشبياً لأصل إلى غرفتي ولذا فإن صوت الخشب كان يعلن وصولي وخروجي ليس فقط للسيدة بل لأهل الحي جميعاً، وكنت أشعر أحياناً أن ثمة أعيناً وراء النوافذ الحديدية تحاول التأكد من أنني دلفت إلى غرفتي ولم أمر بالطابق الأرضي.

وهذه اللحظة شعرت وكأن كل النوافذ تراقبني وأنا أقرع باب «الأرمنية» بهدوء، فتحت لي، مندهشةً، مترددةً في، فلما تأكدت من ملامحي، أكملت شق الباب الأزرق العتيق:

ـ أخلا، مسيو، تفضل. بيريد شي مسيو، آوز شي.

قلت: لا، لكن إذا لم يكن هناك مانعٍ فإنني أريد استعارة عود من الثقاب.

ـ ولو خبيبي، تكرم أينك، تفضل شرف خود عنا فنجان قهوة.

وقبل أن أتأكد هي من صحة دعوتها كنت قد دخلت، شاكراً، معتذراً فوجدت بناتها يتبادلن نظرات الفضول والدهشة، ومضين بسرعة إلى الداخل، ليعدن بعد دقائق بفساتين أخرى، فيما منحتني السيدة مقعداً وعود ثقاب.

وأشعلت اللفافة كأنني أحرّك بركاناً من السعال. وقلقت المسكينة:

- بوشي خواجة؟ بعملك شي سخن؟

قلت: لا. لكنها السيجارة الأولى. شكراً. فنجان من القهوة وينتهي الأمر.

وقامت الابنة الصغرى إلى المطبخ المواجه. فيما رحت أنظر حولي دون قصد، في العالم المجهول الذي أعيش فوقه، كان عالماً من الفقر مغلفا بالأبواب والنوافذ، وكان واضحاً أن «الأرمنية» تلقى عناء شديداً في العثور على قوتها وقوت بناتها، بل كان واضحاً أنّ الليرات القليلة التي كنت أدفعها لها في نهاية كل شهر كان فيها شيء من الخبز. والأرجح أنه كان خبز الذرة الأسمر.

لا شك أنّ حضوري المفاجئ أفرح العائلة. وكسر طوق الحمار غير المعلن الذي ضربه أهل الحي حول المنزل، لكنني خشيت أن تسيء المرأة فهم الزيارة، أو أن تتبادر إلى بناتها أفكار تضلل سكون هذا البيت المسكين وعزلته. ولذا بادرت فوراً إلى الحديث عن «خطيبتي» في القرية، وطابت لي الكذبة فرحت أعطي أوصاف «الست» على أنها خطيبتي.

وقالت لي السيدة في أسىً:

- يعني خواجه بيترك أوضه هون؟

قلت: لا. ليس في وقت قريب على كل حال. فالزواج ليس قبل عام. وأحسست المسكينة تتنفس بارتياح، أما أنا فخالجني ضيق الكذابين.

وقالت لي إنها بدورها تنوي الانتقال من المنزل وتريد السفر حيث شقيقها في كاليفورنيا لكن بعد انتهاء الحرب.

قلت: والبنات؟

قالت: البنات كمان، هون مش عيشة. بيروحوا مدرسة بيقولولهم أرمن، بيجوا حي بيقولولهم أرمن. بس هني بنات شو ذنبن؟ بنات لبنانيي ما بيحكو كلمي أرمني.

وكادت تبكي. وحاولت أن أعتذر عن لبنان، وعن الرجل الذي تزوج حسناء وطلق كهلةً، لقد جئت إلى هنا في محاولة لأنسى مأساة فإذا بي أصغي إلى مأساة أخرى..

وقلت للمرأة: والأب؟ ألا يريد بناته؟

وأخفضت البنات رؤوسهن إلى الأرض. أما السيدة فقالت إن الأب أغلق الباب وراءه ذات يوم ومشى، لم يناقش، لم يجادل لم يقل شيئاً، وقد كان ذلك قبل عشر سنين.

- حجر. خواجا، حجر! واحد بناتو مثل طربون الحبق، مرحبا ما بيقول. مرة، سكر، تزوج، مرة، سكر، طلّق. من يوم ما تزوج ليوم ما طلّق ما بيصحا مرة، الله يسامحو.. الله كبير.

قلت والبنات؟ ألا يصرف شيئاً على البنات؟

قالت: «هيدا بابا، مرحبا، ما بيقول. البنات خالهن بيبعث شوي.. جمعية أرمنية بيدفع قسط مدرسة. الله كبير. الله بيدبر».

وأشعلت لفافةً أخرى. ولم :تقل أي واحدة من البنات شيئاً، كن ينظرن إلى أمهن وكأنها الناطق باسم العائلة المعذبة، وبرغم الفقر المخيم على الدار فقد كان كل شيء يبدو نظيفاً ومرتباً، وكان هناك مذياع خشبي

حديث وبضعة كتب قديمة تظهر أن السيدة على شيء من الثقافة كما كانت الأغطية المطرزة فوق الطاولات العتيقة تظهر مدى مهارتها. وقد علقت على الجدران صوراً فوتوغرافيةً عتيقةً جداً لرجال في ثياب العسكر وقبعات من الفرو مثل أهل القفقاس.

وإذا رأتني أتأمل الصف الطويل من الصور البنية اللون شعرت بشيء من العزاء والفخر. وأشارت بأصبعها إلى إحدى الصور التي بدا فيها فارس كثّ الشاربين، وقالت: هذا بابا في حرب 14. هادا جدهن للبنات.

قلت: أين هذه الصورة؟ في أرمينيا؟

قالت: لا، بابا كان مع العسكر في جورجيا. أنتا بيعرف جورجيا؟ بلد ستالين، بابا كان رئيس خيالة.

ثم انتقلت إلى الصور الأخرى: هادا ماما، جدتهن للبنات هاد كلو عائلة عند مصور قبل الحرب، هلق كل واخد مخل. هيدا دنيا مشى كويس.

وخطر لي أن أسألها: وأنت؟ كيف جئت إلى بيروت. لقد ظننت أنك جئت مع وفود الأرمن الذين هربوا من تركيا..

ونظرت السيدة إلى بناتها الثلاث كأنها تطلب منهن مشاركتها في الندم على اللحظة التي جاءت فيها إلى بيروت، ثم قالت لي:

أنا جيت بيروت مع الخواجا اللي خرب بيتي وترك بناتو. حضرتو كان يشتغل على بابور بياخد بضاعة على أوروبا، مرة كنت مسافرة مع أهلي شفتو بالقهوة. كان شاب حلو كتير وكنت أنا حمارة كتير، بعد يومين هربت معو وعملنا مشكلة للقبطان جينا بيروت، كلو تمام. وبليلة ما فيها ضو قمر حمل تيابو ومشي عند أمو!!

قلت : ألم تحاولي استعادته؟ ألم تحاولي أن تسأليه سبب ذهابه؟

- عرق. خواجا، عرق صبح عرق. راح الله معو...

كانت الساعة قد قاربت العاشرة والنصف. وكان صوت المطر في الخارج لا يزال يرن بإصرار ورتابة على سطوح التوتياء. واعتذرت للسيدة شاكراً ضيافتها، وقمت إلى غرفتي أخلع الطقم الكحلي وأعلّقه فوق سريري الحديدي. وشعرت بجوع ففتحت «النملية» الصغيرة وتناولت شيئاً من التين المغلي مع الخبز الرقاق. وقبل أن أفكر في أي شيء آخر قبل أن يعود طيف «الست» ليغلبني، غلبني النعاس. فارتميت على السرير الضيق وشرعت «الناموسية» فوق رأسي لتقيني البعوض المتكاثر في تلك المنطقة. ونمت.

أيقظتني شمس باردة دخلت بأشعتها إلى الغرفة، وصوت جرس «الترام» آتياً من بعيد، وما إن فتحت أذني وعيني جيداً للعالم حتى سمعت جلبة عربات كثيرة ووقع خيول تدك بلاط الطريق القريب. وتطلعت من النافذة فرأيت فرقة كاملة من «البغالة» تسير بحمولتها في اتجاه ساحة البرج. كان معظمها من الجنود اللبنانيين، لكن كان هناك أيضاً ضباط فرنسيون على أفراسهم الشاردة المتمردة الأعناق، وكانت العربات التي تجرها البغال تحمل مدافع صغيرة وأكياساً ضخمة وألواحاً من الخشب تبدو وكأنها انتزعت من مكان ما.

وأخذ الصبح يطلع متثاقلاً على بيروت. وبدأت الحركة تدب شيئاً فشيئاً. وكنت تسمع أبواب المحلات ترتفع كأنها ستارة حديدية، ثم طلعت أصوات بائعي الصحف: «معنا الأوريان. طلعت البيرق. صيادا دبورا. أخبار فرنسا إلى الحرة...».

ارتديت ثيابي واتجهت إلى قصر العدل، قبل المرور بالمكتب، كان عليّ أن أسلم بضع معاملات هناك، وأن أستعلم عن معاملات أخرى، لكنني ما أن صعدت الدرج الطويل إلى ساحة «العدلية» حتى رأيت عدداً كبيراً من البشر ينتظر تحت الأشجار، ثم شاهدت اثنين من رجال الشرطة يسحبان بعيداً إحدى النساء المتبرجات فيما راحت تشتم بصوت عالٍ وتحاول الإفلات منهما، لكن الشرطيين كانا يضحكان كأن الأمر لا يعنيهما وهما يقتادانها نحو شاحنةٍ في الساحة، ودخلت مبنى العدلية فكانت تعج بالناس أكثر من عادتها، وكانت صفوف طويلة من المحامين يرتدون «الروبات» السوداء أكثر من العادة أيضاً، وسألت أحد الموظفين عن سبب تلك الضجة غير المألوفة فقال لي في شبه همس إن أميل لحود سيرافع ذلك النهار وأن المحامين يبحثون منذ الآن عن مقاعد لهم في القاعة.

وخطر لي أن أبقى أنا أيضاً لأحضر المرافعة. لماذا لا؟ وشعرت بشيء من الترقّب والحماس وأنا أنتظر موعد المرافعة، وخرجت من جديد إلى الحديقة واتجهت نحو الشجرة العتيقة التي كان يستظلها المحامون الكبار فوجدت أميل لحود هناك. جالساً بكل هدوء على كرسي من القش وقد أحاط به المحامون والفضوليون على السواء، وكان يتحدث ضاحكاً في كل شيء إلا القانون أو موضوعٍ مرافعته ذلك النهار، وكان ينتقد الشيخ بشارة بصوت عالٍ «لقد كان وزيراً في كل حكومات الفرنسية والآن أصبح رئيساً للاستقلال، شو هالنضال العظيم».

وقال محام صغير السن، كأنه لم يسمع رأي أميل لحود «أستاذنا، هل تمضي وقتاً طويلاً في تهيئة مرافعتك».

وضحك أميل لحود مثل طاحونة «إنني أتصفحها أحياناً، لكنني أتكل أكثر من أي شيء آخر على العدل».

وضحك الجميع. ثم جاء «المباشر» يعلن للمحامي الكبير وللجميع حوله أن المحكمة ستنعقد بعد دقائق، فاندفعنا جميعاً إلى الداخل بينما وضع أميل لحود «روبه» بسرعة ومشى بلا مبالاة إلى القاعة والناس ترقبه وتترقبه.

وأسقط في يدي عندما دخلت القاعة مع تلك الجموع، فقد كان أول من وقعت عليه عيني هو «الأستاذ الكبير».

كان قد سبق الجميع إلى سماع أميل لحود، وخشيت أن يؤنبني لغيابي عن الكتب، كما خشيت أن يغضب مني لأنني شاهدته يصغي إلى من هو أكثر أهمية منه، ولعله عرف فوراً بالمشاعر التي راودتني، فأومأ إليّ أن أذهب وأجلس بجانبه، وأسرعت نحوه كالأطفال، وحين جلست قربه بدوت مثل هرّة يداعبها دبّ، كان ضخماً بشكل لم ألحظه من قبل، لكنه هذه المرة بدا لي وديعاً مثل حمل، وبدا وحيداً، وكأنه أراد أن يخفف من أهمية حضوره المرافعة فقال يشعرني بأنه على مستوىً واحد مع أميل لحود «أراك أيضاً من محبي أميل....».

وأجبت بنعم، فيما خيم فجأة سكون عميق على القاعة المكتظة بالناس. وقرأ القاضي شيئاً ما، ثم نهض أميل لحود وأخذ يشدو بلغة القانون والناس تنهد إليه، بأعصاب مشدودة، في انتظار أن يبرّئ موكله، لكن الجميع كانوا يعرفون أن موكله ليس بريئاً.

ورفعت الجلسة عند خطاب أميل لحود، كأنما خشي القاضي أن يشوه تلك المتعة بأي كلام آخر، وخرج الجميع كأنهم يخرجون من سرح يتبادلون التعليقات والإعجاب، وكان كل محامٍ يأمل في قرارة نفسه أن يصبح ذات يوم أميل لحود آخر.

أما بالنسبة إليّ فقد كانت تلك مناسبة لأسير للمرة الأولى برفقة «الأستاذ الكبير». وبينما كنا نمشي معاً نحو المكتب قال بعض الكلام في مديح أميل لحود ثم حدث ما كنت أشعر أنه سيحدث. قال لي، كأنه يتلذذ بطعم الحديث:

ـ لم تصفه لي تماماً كيف كان اجتماعك مع «الست» أمس؟

وتمتمت بضع كلمات. ثم قلت له في جدية:

ـ إني أريد أن أسألك النصيحة الأبوية: هل أقبل هذا العمل حقاً؟ ألا تعتقد أنه سيقف دون نجاحي كمحام ؟

وربت على كتفي بصدق:

ـ ربما، لكن هناك الكثير من المال في هذا العمل، إنك سوف تختصر نصف الطريق إلى النجاح في المحاماة. كما أن العمل لدى «الست» سوف يفتح أمامك باب التعرف إلى شخصيات كثيرة إلى كل لبنان.

وسرني ذلك، وكدت أسأله عن الراتب الذي يعتقد أن «الست» سوف تخصّصه لي، لكنه مضى، يتحدث في شؤون أخرى. وقال لي فيما يشبه اللهجة التنبئية:

إن صورة لبنان سوف تتغّير واني أرى ذلك واضحاً الآن. كل شيء سوف يتغّير. إن للحرية طعماً آخر. ولعلك لاحظت ذلك على وجوه المحامين في العدلية اليوم، كم هو رائع أن يشعر الإنسان أنه سيد في بلده. حتى لهجة القانون تتغير. حق العدالة تتغير.

لم أكن أعرف أن لدى «الأستاذ الكبير» مثل هذه المشاعر، وقد شعرت بشيء من الغبطة حقاً وأنا أصغي إليه. كان صادقاً في كل ما يقول، وقد خامرني شعور بالتباهي وأنا أصعد درج المكتب معه أمام «أبو جميل» ثم أمام السكرتيرة والزملاء. كان ذلك بمثابة اعتراف بأن أنهيت تدريبي وأصبحت رفيقاً «للأستاذ الكبير». وقد نظرت إليّ السكرتيرة نظرة تأنيب وهي تراني برفقة سيدها، أما «فؤاد» اللعين فقال كأنه قرأ كل شيء:

ـ بدها حفلة يا شباب. زاد عدد الأساتذة في المكتب!

الحلقة التاسعة

مرت الأيام رتيبةً عادية، وذات عطلة توجهت إلى القرية لمشاهدة أهلي ولأعود ببعض مؤونة الشتاء، إذ لولا تلك المؤن لما كان ممكناً لي أن أصمد في غلاء بيروت. وكان برد كانون قد بدأ يلف القرية من مداخلها. ولم تكن الطريق المعبدة قد اتصلت إلى ساحة القرية بعد ولذا ترجلت عل بعد مسافة طويلة من المنزل، فغّيرت حذائي وانتعلت حذاءً عتيقاً كنت أخبئه معي، ثم رحت أشق الطريق الصخرية المتعّرجة الموحلة إلى البيت.

وأدركني الغياب وأنا في منتصف الطريق لكنني كنت أعرف مسالكها كما يعرف الأعشى عصاه. ثم سمعت صوت أجراسٍ صغيرةً أمامي وصوت ناي يطلق في البرية ألحاناً حزينةً كليالي الشتاء. وعرفت أنه الراعي في طريق عودته، يوزع الطرب على الماعز، ويعلن بأجراسها للآخرين أنه عائد من نهار طويل بين الشوك والأزهار والأوراق الصفراء المتساقطة من الكروم، وأسرعت الخطى نحوه فلما قاربته وألقيت عليه التحية تفرّقت الماعز خوفاً من الوجود الغريب فراح يلمها بعصاه في صف واحد: هاي تعي خي! هاي تعي خي!

توّقف ورحّب بي، كان من عمري تقريباً، وقد ذهبنا معاً إلى مدرسة القرية ونحن أطفال، وجلسنا حول موقد واحد، لكنه عندما ورث هذا القطيع كان عليه أن يذهب باكراً لمساعدة والده، وأحسست وأنا أصافحه

بحرارة أن الشقوق التي تمادت في يديه بلغت عشرات السنين من العمر. أما هو فكان يبدو فرحاً، طرباً، وهو يسألني: شو؟ كيفك بها المدينة يا أستاذ؟ قالوا لنا صرت «افوكاتو». انبسطنا لك!

وتبادلنا أحاديث الذكريات بين راحت أجراس الماعز تقرع ظلام المساء، وما هو قليل حتى لاحت لنا منازلنا المتفرقة مثل سبحة ضوئية متباعدة. وكانت أنوار القناديل تأتي خافتةً من وراء النوافذ والطاقات الصغيرة، كما كانت بعض الشرارات النارية تنطلق من المداخن بين حين وآخر وكأنها حمم بركانٍ هادئ يتذكر نفسه بتقطع.

كان بيت الراعي و«مراحه» في أول القرية. ولذا أكملت وحيداً في الأزقة الضيقة الموحلة، وكانت تترامى إليّ أصوات النسوة وهن يهيئن العشاء وأخذت تملأ أنفي روائح البيض المقلي والبطاطا المسلوقة على المواقد الصغيرة المصنوعة من الطين.

قرعت باب البيت قبل أن أدخل، وكانت عاداتنا يومها أن نترك الأبواب مفتوحة فإذا وصل أحد، خصوصاً تحت المطر، كبس «زناد» القفل الخارجي ودخل مسرعاً. ولذا فأنني إذ قرعت زرعت بعض الترقّب في نفس أهلي فالتفتوا كلهم إلى الباب. وركضت شقيقتي الصغيرة وقد احمّر خداها بفعل الدفء وفتحت الباب بسرعة وهي تقول: مين؟؟

حملتها بين ذراعي فيما هبّ والدي المتمدد على بساط من القش. ووقفت أمي واضعةً يدها على خدها في فرح، وتدافع إخوتي واحداً واحداً يسلّمون على هذا «المغترب» الذي طالت غيبته عنهم، ثم انصرفت أمي فوراً إلى إعداد العشاء (الخاص) بينما تحلّق إخوتي حولي وأخذ أبي يتفرّس بي كأنه يعوّض نفسه عن أيام الغياب.

ولسبب ما، وبرغم نور القنديل الشاحب كأنه قرأ في وجهي شيئاً ما الشيء الذي يقرؤه الآباء وحدهم، وخيّل لي أنه طرح عليّ كل الأسئلة، وأنني أعطيته كل الأجوبة، لكن ظل جواب واحد يريد معرفته: من هي؟

كان مستحيلاً أن أنفرد بوالدي في المنزل، ولذا انتظرنا ـ دون أن يقول أحدنا للآخر ذلك ـ أن يذهب إلى الحقل في اليوم التالي فأرافقه إلى هناك، وفيما نعبر الحقل شعرت بشيء من الكره «للست». كان كل ثلم من الأثلام يروي حكاية أبي ومعوله، وكانت الوحول التي نغرق فيها تدلني كم هي صعبة طريقه كل يوم إلى الأرض التي منها دفع أقساط مدارسنا، وهاأنذا أقرر، وقد دخلت بهو الأغنياء وصرت أحضر مرافعات إميل لحود، لأنسى كل شيء، وأغض طرفي عن هذه العائلة وهذه الأرض وأبدأ طريقاً جديدة لا علاقة لها بأثقال هذا الماضي وهذه الأثلام الصعبة، التي يسقيها أبي بعرقه عندما تشح المياه ويحميها بدموعه عندما تطوف.

وفاحت رائحة الأرض مثل ياسمينة تتفتح، وأخذ أبي يتردد في مباشرة الحديث، كان خجلاً وكان يحبني وكان يعرف أنني في السادسة والعشرين من العمر، لكنه كان أبي، وبدأ حديثه مداوراً:

ـ يقولون إن بيروت أصبحت مليئة بالمغريات هذه الأيام يا بني. سينما وبنات، وأخذ النساء يشتغلن مثل الرجال، وأنا قلق عليك، الحقيقة أعرف أنك قوي الإرادة، لكن يا بني المغريات كثيرة وابن آدم ضعيف.

ثم استند إلى شجرة مشمش عتيقة كأنه يريد أن يعلن شيئاً وقال: «الحقيقة، أنا وأمك فكرنا أن نخطب لك ابنة حلال منذ الآن. ما شاء الله محامٍ عند أكبر «أستاذ». والخير لقدام، وأخوتك الله كريم: مثل ما أسعفنا عليك يساعدنا عليهم..»

لم أدر ماذا أقول له. كان كتلة من الحرب والوداعة. وكان يريد أن يحميني وفي الوقت نفسه لا يريد أن يحرمني. كيف أشرح له أنني عشقت امرأة متزوجة. وهو يحذرني من أن النساء أخذن يعملن؟ وكيف أقول لهذا الرجل الذي لا يحسر رأسه حتى في الحقل ولا يخنف من شارييه ولا يتطلع إلى امرأة في وجهها. أنني هائم في هوى امرأة من دون معرفتها وأنني لن أخطب أحداً ولن أتزوج من أحد ولن أفكر في أحد.لأنها تسكنني كما يسكن ناي الرعيان ليالي الشتاء؟

وتصنع أنه يداعب الأثلام بمعوله وهو ينتظر إجابتي. لكنني رحت أدور حول نفسي. لن أقر بشيء. لن أدخل الحزن إلى قلب هذا الرجل مهما حدث. هكذا نقلته إلى حديث آخر:

ـ ربما أصبحت في سن الخطوبة والزواج. ولكنّ هناك متسعاً من الوقت. الآن علينا أن ترى كيف أساعدك في تعليم إخوتي. وليد سوف ينزل إلى بيروت في العام المقبل. وبعده سلوى. دعنا من الخطوبة الآن.

ـ لا.لا. إخوتك يتدبرون أمورهم. الله معين. الآن أن نفرح بك. تخطب ثم تعمر بيتاً هنا. أحسن بيت في القرية! ثم تزوج.

وضحكت. أردت أن أطرد موضوع الزواج من المحادثة.

ـ دعنا من ذلك الآن . نبحث الأمر في المشوار المقبل.

وأحنى رأسه إلى الأرض خجلاً. ثم مسح جبينه البارد وأنفه الأحمر وقال. كأنه يرفع المسؤولية عن كاهله:

- يا بني، لقد تشاورنا أنا وأمك في هذا الموضوع طويلاً. وقد اختارت أمك ابنة عمك الوسطى. إنها أحلى أخواتها. وبنت متعلمة وبتساعدك وبتخليك حدنا.

قالها أخيراً. كل ما يريده هو أن أبقى إلى جانبه. فجأةً أصبحت بيروت مثل الوحش الذي يأكل الذاهبين إليه، وأصبح النجاح مخيفاً. كان يخشى أن أصبح ـ إذا نجحت كثيراً ـ من طبقة أخرى وأن أبتعد عنه. إذن، ابنة عمي هي الوثاق. «الصبي» يجب أن يظل قريباً، بأي ثمن. ولو أنه استطاع بكى تلك اللحظة ولقال لي ذلك بكل بساطة. لكنه أراد أن يقول كل شيء دون أن يزعجني، دون أن ينفرني.

وفجأة تلبدت الغيوم فوقنا وهبطت مرةً واحدة حتى لفتنا في وسطها. وقلت له كأنما هبط عذري من فوق. إنها ستمطر. ما رأيك أن نعود؟

لكنه قال بثقة من يعرف القرية نسمة نسمة وغيمة غيمة: لا. هذا غيم نقال. لن تمطر هنا على كل حال.

ثم تطلع إلى السماء وخفض رأسه بسرعة «قد تمطر في المساء، لكن الريح سوف تقوى الآن. إنها شمالية قارسة. إذا كنت تشعر بالبرد نعود».

ومسح عن ذقنه عرقاً ممزوجاً بالجليد. ثم تطلع أمامه في المدى: جبال تتراكم فوق أودية وتلال تأنس بوهاد. والأرض حائرة بين العري والخضرة بين اليباس والخير الدفين. وتوقفنا قليلاً عن الكلام فأخذنا نسمع صوت الصمت والسكون، وعصافير تقفز هاربة فوق الأغصان، وبين حين وآخر، صوت رعاة وفلاحين يتنادون في الوهاد.

وفجأة قال شيأ لم أكن أتوقعه:

ـ هل ترى كل هذه المنطقة أمامك يا بني وكل تلك البيوت والأكواخ؟

ـ ما بها؟

ـ لا شيء، لكن كلها ليس فيها أكثر من عشرة أو عشرين شخصاً يتكلمون الفرنسية، وفيها على الأرجح محام آخر أو أكثر بقليل تأمل كم هي نعمة الله علينا.

وعاد يمسح الجليد عن شاربه:

أنا وأمك لا نريد لك الزواج فقط، بل إنك منذ ولدت وفي نفسي لك طموح آخر.

فاجأني حقاً كلام أبي. هذه أول مرة يحدثني بهذه اللهجة. لكنه لم يتركني أقاطعة.

لقد حان الوقت الآن لأن أطلعك عل هذا السر. منذ سنين طويلة مات جدك. وقد ترك لي يومها 75 ليرة ذهباً، الحقيقة تركتها لك، ومنذ ذلك الوقت وأنا أسعى إلى زيادتها بأي ثمن.

وأرجع قبعته الصوفية قليلاً إلى الوراء وقال جزلاً:

ـ «هناك 200 ليرة عثمانية الآن تضعها أمك في مكان خفي في القبو. إنها كل ثروتنا بالإضافة إلى هذه الأرزاق، وهي كلها لك، جمعناها من أجلك، ومن أجل هذا النهار.

قلت أنا حقاً لا أفهم:

ـ ما به هذا النهار؟

- وأكمل كأنه لم يسمع اعتراضي:

- «أنا أكره السياسة يا ابني.. وأكره السياسيين. لكن ها هو لبنان بلد مستقل الآن، هل تعرف ماذا يعني ذلك لنا؟ إنه يعني نهاية الإقطاع، لن نكون خدماً لأحد بعد اليوم ولا تحت رحمة أحد. لقد شبعنا ظلماً من الغريب والقريب، ويجب ألا تعيش أنت وإخوتك كما عشنا نحن، إنهم سوف يزيدون عدد النواب الآن في المجلس، وهل هناك من هو أفضل منك؟ محام ومتعلم وشاب؟

ضحكت، وغمرته أقبله من جبينه البارد.

- ما لنا وللسياسة يا سيدي. هذه لها أربابها. والمنتظرون، كثيرون. إنهم يحملون أطناناً من الليرات العثمانية. دعنا الآن نفكر في العائلة.

- لا، العائلة اتركها لي، الآن فكر في نفسك، سوف تكون نائباً من أعظم الخطباء، وسوف تكون وزيراً. وسنلقن أزلام الأتراك والفرنسيين درساً لا ينسى.

ضحكت، وضحكت طويلاً. هذه أول مرة في عمري أسمع أبي يحكي في السياسة. ووضع معوله فوق كتفه بخفة من يشلح سترته واتجهنا عائدين إلي البيت وهو لا يزال يحكي في الإقطاع والنيابة.

كنت أجهل أن في إمكان أبي أن يجمع كميةً من الليرات الذهبية برغم التقتير الذي نعيش فيه. وكنت أجهل تماماً أنه يحمل لي أحلاماً سياسية. بل أنني لم أكن قد سمعته مرة واحدة يتحدث في السياسة. لقد وضع كل

أحلامه دفعةً واحدةً أمامي. كان كلما ضرب المعول ضربةً في الأرض يضيف تفصيلاً جديداً إلى حلمه، وكلما حان زمن القطاف تقترب أحلامه منه أكثر فأكثر. فلما حان موسم الحقيقة الآن كان أول ما تخلى عنه حلمه!

وأخذنا نشق طريقنا صعوداً إلى البيت بصعوبة، والريح تلفحنا بالصمت. ولكي لا يثقل علي، أراد أن يغير الحديث وأن يتحدث في أمور أخرى. لكنني رفضت.

قلت له، وهو يسير أمامي ورأسه في الأرض:

- السياسة ليست لي يا أبي، إنني لم أصنع لها ولا هي صنعت لنا والمتناطحون كُثر. أين نحن منهم، وأنك لو ملأت القبو كله ذهباً لما تغيرّ شيء.

ثم أضفت خبراً مغرياً في هذا الجو القاتم:

- إنني على وشك الحصول على وظيفة مهمة تدر مبلغاً كبيراً من المال ولعلّها تفتح أمامي أبوابا كثيرة أيضاً قد يكون بينها باب النيابة... من يدري؟!

وقال دون اهتمام حقيقي:

- أي وظيفة هذه؟ هل ستترك مكتب «الأستاذ الكبير»؟

قلت: لا. لن أترك المكتب الآن، والوظيفة جزء من عملي هناك. لكنني سأتقاضى مبلغاً محترماً منها.

وأجاب، كأنه يساومني على حلمه:

ـ طيب إذا كنت لا تحب السياسة ما رأيك القضاء؟ لماذا لا تحاول أن تصبح قاضياً؟

لم أجبه. لم أقل له إنني لا أريد أن أصبح أي شيء لأنني أريد أن أكون قربها، ولا أريد أن أتزوج أحداً لأنني أريد أن أظل قربها.

وتقدمني إلى صخرة رملية يستريح عليها دائماً في منتصف الطريق . وقال وهو يجلس:

لقد علمنا أنهم سيشقون الطريق قريباً إلى القرية. لست أدري كم هذا صحيح، فقد سمعنا وعوداً كثيرة من قبل. لكن وفداً من المنطقة ذهب إلى تهنئة الشيخ بشارة منذ أيام وشرح له الحال فوعد بالطريق وبأن يرفع مستوى المدرسة أيضاً.

وأضاف ضاحكاً:

- احزر من رُشحوا لإدارة المدرسة؟

وقلت، أشاركه مزاحه، «الأستاذ أيوب؟».

وقال: «لا، الأستاذ أيوب سوف يتقاعد بعد سنة أو سنتين. الآن ابنه الأصغر أصبح أستاذاً مرموقاً في إحدى قرى الشمال وسوف ينقلونه إلى هنا إذا سار كل شيء على ما يرام».

وصلنا البيت متعبين، وتدافع إخوتي نحوي بينما وقفت أمي في صدر البيت تنظر إلى أبي وكأنها تسأله: هل نجحت؟

لم ننظر إليها. وضع حمله عند المدخل ثم تقدم نحو الموقد وجلس القرفصاء.

وتنافس إخوتي، يروون لي في صوت واحد، أن الطريق ستصل إلى القرية قريباً. كان هذا أهم نبأ. إنهم سيتفرجون على البوسطات والسيارات في ساحة القرية بعد الآن. وسوف يأتي إلينا باعة الثياب وباعة البوظة في سياراتهم كما يفعلون في القرى الأخرى. أما الآن فإن الجمال والبغال وحدها تأتي محملة ببعض البقول والحبوب من سهل البقاع، وأحياناً يأتي بعض الزائرين على خيولهم، وخصوصاً رجال الدرك. أما السيارات فإننا لا نسمع حتى هديرها، ولا يقطع رتابة النهار في القرية سوى ساعي البريد الذي يحمل، فيما يحمل صحيفة أو اثنتين إلى أحد المشتركين الميسورين. ويتداول الصحيفة كل من يقرأ، وغالباً ما يعمد المختار إلى قراءة الأخبار المهمّة في الساحة بصوتٍ عال، فيتحلّق حوله العجائز، وتصغي بعض النسوة من بعيد إلى أخبار الحرب، ومن الصحف فقط عرفنا أن الجيش الإنكليزي قد مرّ بجحافله على مقربة من القرية، لكن كان يفهم من لهجة المختار في قراءة الصحيفة ومن تعليقه على الأنباء بعد ذلك أنه مع «دول المحور» ومع «فرنسا الحرة» في وقت واحد، وبرغم تأييده «للمحور» فقد كان يشعر بالسرور عندما يمنى اليابانيون بهزيمة ما، ولم يكن يفضي بسبب سامعيه، أما هم فكانوا على ثقة كاملة به، وكانوا يؤيدون من يؤيد. والأرجح أن بعضهم كان يحب أن يعارضه لكنه كان يخشى أن يحرم من سماع الأخبار، ولم يكن في القرية كلها أي مذياع يغني عن الصحيفة التي يحملها ساعي البريد، لأنه لم تكن هناك كهرباء، كان لدينا من أدوات العصر طاحونة للدقيق ومعصرة للزيت. أما أي شيء آخر فقد كان علينا أن نخرج من عالمنا الصغير للوصول إليه.

الحلقة العاشرة

عدت إلى بيروت أحمل المزيد من المؤن والمزيد من الأسى، وقد استيقظت باكراً ذلك اليوم، قبل طلوع الفجر، لأصل إلى مكان انتظار «البوسطة» على مفترق الطريق الرئيس، فوجدت أبي وقد ارتدى ثياب الحقل وأمي، وقد عقدت منديلها كأنما النهار قد انتصف، وأصرّ أبي على أن يحمل معي حقائبي وزادي ولو نصف الطريق، أي مقر عمله اليومي وعشقه الأزلي للأرض.

كانت تمطر في هدوء ورتابة، ورحنا ننزل الطريق إلى الوادي في سرعة وخفت أن تفوتني «البوسطة» إن تأخرنا، والواقع أنني أمضيت الليلة الماضية يقظاً، كنت أشعر أن أبي قد حررني عندما أبلغني أحلامه المستحيلة، بل بدا لي أن الوقوع في حب «الست» أمر سهل في المقارنة، وكانت ثمة غبطة دفينة تبعث بي النشوة... فلن أكون على مقربة منها على كل حال، وفي كل وقت.

وقطع علّي أبي رحلة الأفكار والنشوى، وقال كأنه تنبه إلى شيء خطير:

- له ، له . لقد نسينا على عمى قلوبنا أن نذهب لزيارة «أم وحيد».
لقد سافر ابنها إل البرازيل منذ عشرة أيام والمرأة المسكينة لا تزال
تجلس عند النافذة، ليل، نهار، باكيةً، صامتةً، آملة أن يعود.

قلت : إنني أكره منظر الأمهات الحزانى، الحمد لله أنك لم تطلعني على ذلك، لكن لماذا سافر «وحيد» إلى البرازيل على كل حال؟

وترك رباط الفرس الكهلة التي كان يضع عليها حقائبي ومعاوله، وانحنى إلى الأرض فقبّلها شاكراً، ثم رفع رأسه إلى السماء:

- الحمد لله يا ابني، نعمته علينا عظيمة. لم أضطر مثل نصف رجال القرية أن أسافر لكي أعيلك أنت وإخوتك. إنك تسأل لماذا سافر «وحيد» كأنك لا تدري.

قلت : الحقيقة يا أبي أنني لا أدري. لقد كان وحيد رفيقي لكنني لم أكن أعرف شيئاً عن مشاريعه.

وقال كمن يختصر المحادثة:

- أي مشاريع يا بني؟ إن الرجل مسافر على هدى الله.. لقد جمع مبلغاً قليلاً من المال يكفيه أجرة الباخرة وأبحر، اكتشف أنه غير قادر هنا حتى على الزواج. وقد سئم نظرات الناس إليه والى أمه...

قلت: لماذا؟ ما بها نظرات الناس؟

عندما كنت لا تزال طفلاً هاجر والد وحيد إلى البرازيل مع أول موجة من المهاجرين، في بداية الأمر كان يراسل زوجته ويسأل عن وحيده، ثم انقطعت أخباره فجأة. ومرّت سنون دون أن يراه أحد، واعتقد الجميع أن أمراً قد حدث له، لكن بعد بضع سنوات شاهده مهاجر آخر في أدغال «الأمازون» في أحد مناجم الماس، وكان يبدو مرتاحاً بل ثرياً على الأرجح يعطي الأوامر لمن حوله. ولما اقترب منه صديقنا يسلّم عليه تظاهر بأنه لا يعرفه وبأنه لا يجيد العربية، كن صديقنا كان متأكداً ألف بالمئة من أن رجل منجم الماس لم يكن سوى «أبو وحيد».

ـ لكن لماذا الاختفاء والتخفّي؟

ـ يقولون إنه تزوّج من امرأة برازيلية ثرية ورزق منها بأولاد. وبعضهم يقول إنه يساكنها فقط، وقد قرر وحيد أخيراً الهجرة والبحث عن والده فيما تبكي أمه المكينة خوفاً من أن تكون فقدت الاثنين.

وشعرت بمرارة وامتعاض، ووصلنا إلى الساقية التي نفترق عندها عادة فأنزل أبي الحقائب وراح يضمني إليه، وكان الضوء قد بدأ يطلع قليلاً من وراء التلال، قبّلته وأسرعت الخطى. وكان نور النهار يزداد كلما مضيت قدماً. ولم أكن أسمع سوى وقع قدمي فوق السنابل الطرية، وأحياناً كان يخيّل إليّ أن ثعلباً أو طيراً كبيراً قد تحّرك على مقربة، ثم أخذت بقية الطيور والعصافير الشتائية تستفيق وتنتقل من شجرة إلى أخرى، مصفقة بأجنحتها لعودة الضوء.

لكنني وصلت إلى الطريق العام لأكتشف أن البوسطة قد فاتتني للتو. ورميت حقائبي باستسلام ووقفت عند المفترق أتأملها وهي تلتوي على الطريق الضيق فيلمع سطحها الأحمر تحت أشعة الشمس الباهتة، وبدلاً من أن أعود يائساً، وضعت حقائبي وجلست فوقها آملاً أن تمر سيارة ما. وبالفعل ، لم تمض ساعة إلا ومرّت سيارة سوداء فخمة لكن صاحبها لم يتوقف. وعاد المطر يسقط قليلاً فاحتميت في ظل سنديانة ضخمة، ورحت أنتظر. ثم سمعت من بعيد صوت شاحنة تعارك الطلعات الصعبة والأكواع الضيقة، فوقفت معترضاً في منتصف الطريق، فلما وصلت استطعت أن ألمح ضحكة السائق من وراء الزجاج الضخمة.

وتوقف، لكنه قال وأنا أصعد «الرفراف» لأجلس إلى جانبه إنه لن يصل إلى بيروت، بل هو ذاهب إلى أحد مقالع الحجارة على مشارف المدينة. وقلت لا بأس ضعني في أي مكان ومن هناك أتدبر أمري.

ظلت تمطر طوال الطريق. وظل السائق يتحدث ضاحكاً، أخبرني في شيء من الفرح أنه مقبل على ثروة قريبة، فقد تعاقد مع الفرنسيين على نقل كميات كبرى من الأخشاب إلى معسكراتهم. وأضاف ساخراً: «قبل ذلك كنت أعد ساعات العمل بالقطارة، الآن قال الكريم خذ، هذا حق الشاحنة أضعافاً. تعلّمنا كلمتين فرنسي في المهجر، وهلق عم نستعملهم وخود يا ليرات إنكليز».

وسألته في حشرية في أي مهجر كان، لأرى إن كان يعرف أحداً من أقربائي، فقال ضاحكاً إنه كان في شاطئ العاج : «لكن المناخ لم يُلائمني كثيراً فحملت نفسي ورجعت».

وقلت بخبث: «بشرفك، هي قصة مناخ؟».

قال: يعني. ليس تماماً. إنما في النهاية قصة مناخ ....».

- وهل هناك سبب آخر؟

قلتها وأنا أكثر سخرية، فأجاب وهو يتجاوب، ضاحكاً، مع سخريتي:

- يا سيدي، وزّعوا إشاعة بالجالية أنني كنت أسرق الخواجا الذي أعمل لديه من البضاعة التي أوزّعها في الأدغال، شو بدك تسرق لتسرق. دزينة الفساتين بنص ليرة إنكليز، يا سيدي الله يسامحهم!

وملأ بقية الطريق بذكرياته عن الأدغال، نصفها أساطير ونصفها بهار وملح، وكلها مسلية.

وضعت حقائبي في الغرفة الرطبة وعدوت إلى المكتب، كانت الساعة التاسعة، تقريباً. وبدت ساحة المعرض وكأنها قد استيقظت منذ مئة عام: أصوات العربجية تختلط بزمامير السيارات القليلة، وأصوات الباعة تعلو منادية كل أنواع الشارين، وروائح الأطعمة المتصاعدة من الدكاكين الصغيرة تملأ أنوف الذين يملكون والذين لا يملكون على السواء.

وكالعادة سبقني إلى المكتب صوت «أبو جميل» من تحت الدرج:

- واحد قهوة للأستاذ يا صبي! اثنين ع الريحة للبارون كريكور.

حييت الجميع بشيء من الخفة. ولم يرد فؤاد التحية بل أمسك ببضع أوراق من فوق آلته الطابعة ومدّها إليّ وهو يفرك صلعته باليد الأخرى قائلاً:

- تفضل شرّف. «الست» في انتظارك، الدنيا حظوظ يا عم!

أخذت الأوراق دون أن أعلّق بشيء، كانت مجموعة كتب من «بنك سوريا ولبنان» في شأن أملاك «الست» في بيروت، وكان هناك أيضاً مظروف أزرق يحمل اسمي، فتحته بخوف، ولست أدري لماذا خيّل إليّ أنها عرفت بكل مشاعري وأنها كانت تصغي إلى أنفاسي عندما ما كان أبي يحدثني في الكروم وها هي «تطردني» سلفاً من العمل، لكن الرسالة لم يكن لها علاقة بالمشاعر. كانت بضعة تواريخ وبضعة أرقام، وسوف تتحّول هذه التواريخ وهذه الأرقام إلى أول وآخر انقلاب في حياتي. تقول الرسالة:

«... الإنفاق مع حضرتكم في شأن العمل. ووفقاً لمحادثات سابقة مع مكتبكم ممثلاً بشخص مالكه (الأستاذ الكبير) نرجو أن تعتبروا هذا التكليف بموجب عقد رسمي:

أولاً: العمل كمحامٍ بوكالة عامة عن جميع أملاكنا غير المنقولة في لبنان وفرنسا والإسكندرية.

ثانياً: لقاء ذلك تتقاضون راتباً شهرياً قدره 800 ليرة يغطي جميع المصاريف.

ثالثاً: يعتبر هذا العقد ساري المفعول اعتباراً من 30 كانون الثاني 1943.

«التوقيع»

حاولت أن أقرأ اسم صاحب التوقيع فلم أفلح، لكن كان واضحاً أنه توقيع زوجها، كما كان واضحاً أن الرسالة قد طبعت في مكتبنا وأن «الأستاذ الكبير» هو الذي وضع نصها، لكن من الذي قرر هذا الراتب الخيالي؟

شعرت برغبة قوية في الرقص، في القفز فوق الطاولة: 800 ليرة مرة واحدة؟ وكيف تعيش الناس بهذا المرتب وأين وفي أي حي من أحياء بيروت؟

واقتحمت مكتب «الأستاذ الكبير» والرسالة في يدي دون أن أستأذن سكرتيرته الصلفة كالعادة. ووقفت أمامه فقرأت في ملامح وجهه الذكية أنه عرف سلفاً بكل كلمة أردت قولها، بل إنه كان يجلس هناك منتظراً أن أدخل عليه والرسالة في يدي. وتملكتني فجأة فصاحة لم أكن أعرفها ورحت أشكره دون توقف، وهو يبتسم، دون أن يقول شيئاً. وفي النهاية وقف بقامته الضخمة من وراء طاولته ووضع يده على كتفي:

ـ هذه فقط بداية الطريق. لقد تعبت واستحققت. لكن لا يخّيل إليك أنك أمام مهمة سهلة، إن هذه الوظيفة ستأخذ منك الليل والنهار. وعليك أن تتحمل غلاظات كثيرة من الذين يعملون في مملكة

«الست»: ابتداءً بنواطير البساتين وانتهاءً بالمهندسين. لذلك لا تفرح كثيراً بالراتب. مبارك لك في كل حال. والله يوفقك.

عندما خرجت من عنده رأيت بحر العيون مائجاً أيضاً. وأدركت أن الجميع قد عرفوا. والأرجح أن «فؤاد» لم يطبع الرسالة فحسب بل شارك في وضع نصها أيضاً، ولذلك قلت ضاحكاً إن الجميع مدعوون إلى وليمة في «الأوندين» آخر الشهر. لكن فؤاد ردّ بخبث «إنك في حاجة إلى راتبك كاملاً لتغير غرفتك و... خزانتك أيضاً...».

اختلطت متعة المال بنشوة الحب. وهذا الراتب الجديد سوف يصنع رجلاً جديداً، إن أتعاب العمل هي دون ذلك بكثير وقد لا تستحق نصف المرتب مهما بالغ «الأستاذ الكبير» في وصفها، لكن «الست» لم تكن تريد فقط محامياً مجتهداً بل محامياً «لائقاً» أيضاً، إنه جزء من حوائج «الست». فإذا كانت حقائبها الفرنسية الصنع هي أفضل الحقائب، وإذا كانت سيارتها هي أفخم السيارات التي تدب في شوارع بيروت، وإذا كانت تسافر إلى «نيس» كل صيفٍ فقط من أجل اختيار مجموعة جديدة من القبعات... وإذا كان سائقها يبدو بثيابه الرسمية، وكأنه ضابط بدون رتبة في الجيش الفرنسي... فلماذا لا يكون محاميها أيضاً هو أفضل المحامين؟

لم أجد تفسيراً آخر للراتب، كان رقمه رسالةً أخرى بسيطة تقول: انتقل غداً من غرفتك الرطبة إلى شقة لائقة في بيروت ولا تعد إطلاقاً إلى ارتداء ذلك الطقم الكحلي المضحك وتلك الربطة العنابية العتيقة، وعندما تكون في محيط «الست» يجب أن تكون في مستوى ذلك المحيط، يجب ألا يضحك الخدم من هندامك، وألا يسخر السائق من فقرك وألا يشعر الزوار خصوصاً الزوار. أنك دونهم في القدر ولو كنت دونهم في الشأن!

هل سأقبل بذلك؟ لقد ذهبت ذلك النهار إلى تلك المرأة المجهولة وأنا أعتقد أنني سوف أصبح ذات يوم فارساً من فرسان المائدة المستديرة، ثم خرجت من بهو ذلك البيت وأنا أشعر أنني عاشقٌ من عشاق العصر، لكن ها هي، برسالة صغيرة طبعها رجل وضيع ، توضبني، تلفني مثل سيجارتها الطويلة، وتضمني إلى حوائجها الكثيرة.

عدت إل غرفتي في المساء، فوجدت السيدة الأرمنية لا تزال تنظف البركة الصغيرة أمام المنزل حيث كانت تمضي الوقت في تربية السمك الساكت، وقد دعتني بحرارة لتناول طعام العشاء مع العائلة، وأحسست بالشفقة والضعة وأنا أجلس إلى مائدتها مع بناتها الثلاث، كانت قد تصنّعت تنظيف البركة في وقت متأخر لتتمكن من دعوتي، وقد جهزت للعشاء كل ما تستطيع بإمكاناتها المرهقة، وارتدت بناتها جميعهن أثواباً مزهرة فاقعة الألوان، ولم يكن يهمّها أيهن تلفت نظري أو لأيهن أتقدم بالخطبة. وكان المشهد موجعا ومضحكاً في آن، وكنت كلما ازداد شعوري بالشفقة يزداد شعوري بالصغر وبالكذب، وحاولت مرات عدة أن أعترف لها ذلك المساء أنني سأترك الغرفة خلال أيام، لكنني كنت كلما هممت بالاعتراف تقع عيني على البنات الثلاث فأجدهن مثل دمى فوق رف في واجهة زجاجية: يصمتن ويبتسمن، يصمتن ويبتسمن، ثم يخفن قول أي كلمة من أي نوع خشية أن يسقطن في الامتحان، وهكذا تولّت السيدة الحديث طوال الوقت، وبكل أناقة وذكاء، وكانت تصدر الأوامر إليهن بين حين وآخر لتثبت لي أنهن جميعاً مؤهلات لإدارة المنازل.

كان الفقر مضحكاً ومؤلماً ذلك المساء، وقد شعرت أنني بعد القفزة المفاجئة إلى رفوف الأثرياء سوف أترك هذه العائلة المسكينة في سفينة

الفقر، تبحث عن مستأجر آخر يدفع الليرات القليلة في نهاية الشهر. وتبحث عن عرسان ثلاثة في حي عدائي لا يلقي على العائلة حتى تحية الصباح، لكنني رحت أطمئن نفسي لكي أخفّف من شعوري بالذنب: الأرمن قوم حاذقون، وغداً تسافر العائلة إلى كاليفورنيا وتعيش في الثروة والعرسان، وينسى الجميع هذا المنزل الرطب وهذه العريشة السقيمة التي تلف جداره الأمامي... بل وتنسى السيدة الأرمنية بركة السمك المليئة بالطحلب وتنكات الفل التي تملأ بها العتبة لتخفف قليلا من لون العمر الذي التصق بالمنزل.

وبين حين وآخر كانت السيدة الأرمنية تطلعني على أخبار الحرب كما سمعتها في الراديو، وكانت بناتها الثلاث يتبادلن النظرات الضاحكة بصمت بمعنى أن الأمر لا يعنيهن على الإطلاق، أما السيدة نفسها فكان واضحاً أنها حزينة لما يجري على الجبهة الروسية. وكانت قد فقدت أخبار أهلها هناك، وكانت تدير إبرة المذياع على كل المحطات أملا بأن تسمع عن انتصار أو وقف للحرب هناك، وأخذت تصف لي ما تعنيه الجبهة وعدد الذين يسقطون هناك. لكن كل شيء بدا بعيداً عني، بعيداً عن هذا الهدوء الذي نعيشه في لبنان، وتذكرت سائق الشاحنة وضحكاته وكيف ينوي أن يجمع ثروة كاملة من حرب الانكليز بينما العالم كله في جبهات هنا وهناك.

الحلقة الحادية عشرة

إنه العام 1945. ولقد تحوّل كل شيء آنذاك إلى رتابة إلا الحب والحرب التي تشرف على نهايتها. فالأشهر الطويلة التي مضت كانت تمنح كل شيء لموجة الروتين الذي يلفنا كالطاحون. الأستاذ نفسه ذهب إلى التقاعد منذ أكثر من عام وأنا في مكتبي الخاص وعندي ثلاثة محامين يتدربون، ويقومون بالعمل الحقيقي، وجميعنا في خدمة «الست» التي كانت تعبر بها السنون كما تعبر بالشجرة تزيدها بهاءً وتيهاً ومقدرةً على إبداع العواصف من حولها.

وما عاد سراً في بعض أوساط بيروت أنني أحبها. ولم يعد سراً أنها لا تبادلني هذا الحب. ولم يعد سراً كذلك أن زوجها أي والدك، الذي ملأت حياته بعطرها ذات يوم، أصبح يملأ يومه بين مكتبته في البيت ومكتبته في المكتب وأحياناً قليلة في سباق الخيل حيث يتسلّى بلعب طاولة النرد أكثر مما يسر بالخيول المزّيفة. ولم يكن هو يملك أية خيول مثل بقية الأرستقراطيين الأثرياء في المدينة لكن يبدو لي أنه كان يستمتع برفقة السياسيين الذين يأتون إلى منتدى هنري فرعون في السباق. أما عدا ذلك فأنني نادراً ما سمعته يتحدث في أمر أو رأيته يبدي اهتماماً بشيء. وكان يعاملني عندما يراني وكأنني كنبة جديدة أو طاولة إضافية في هذه الصالونات الواسعة المرتفعة السقوف. ولم يكن يظهر أي عواطف سياسية أو آراء. فيما كانت كل سياسة بيروت تصنع على ذلك المقعد الوثير الأزرق قرب الهاتف حيث تجلس «الست»، وتروح تبعث في السماعة العتيقة حرارة الحياة والحياة والحياة.

كانت هي من دون أي شك كل بيروت وكان هو يسلم نفسه للترهل وقد جرّب الثروة والجاه والشهرة وكل حانات الزيتونة وها هو الآن يحارب الضجر بنظارتين سميكتين تلتهمان الكتب بهدوء وتأمل. ولست أدري لماذا اختار أن يحادثني ذلك المساء، عندما مررت كالعادة بحجة الإصغاء إلى أوامر «الست». وقد فوجئت عندما رآيته في الردهة. من دون نظارات. يحمل صحيفة «الأوريان» تحت إبطه ثم يقطع الصالون إلى الشرف ثم يعود. وفجأة نظر إليّ قائلا:

ـ هل قرأت صحف الصباح.

واعترفت بأنني لم أقرأ شيئاً، بل الواقع أني لم أقرأ صحيفة منذ أيام. لكنه على كل حال أكمل الحديث دون أن يقاطع نفسه:

ـ بضعة أيام ويعلنون نهاية الحرب لقد انتهى أمر «المحور» لقد حوّلوا برلين إلى ركام ولا بد للعالم الآن أن يسلم أمره إلى الآخرين.

وقلت في غباء واضح: ونحن؟ نحن. كيف ستؤثر علينا نهاية الحرب؟

وأمسك صحيفة «الأوريان» ولوّح بها قائلاً:

ـ لست أدري. لست أدري. لقد قرأت أمس خطاباً مجتزاً لتشرشل لم أفهم منه الكثير. وهناك ديغول كما تعرف.

ثم مضى يخاطبني أو يخاطب نفسه وكأنه يقرأ في المستقبل:

ـ والأميركيون؟ ماذا سيفعل الأميركيون؟ هل يمكن أن يعودوا إل الداخل بعد هذا الانتصار. إنهم يصافحون ستالين ويتعشون مع تشرشل ويقايضون فرنسا المتعبة ويؤنبون ديغول. ونحن؟ نحن

لست أدري. إن مأساتنا في الحرب هي مأساتنا في السلام وهي أننا في بلد استراتيجي، نحن في منطقة لا غنى عنها، وسوف يزداد الصراع السياسي علينا بين الإنكليز والفرنسيين. وغداً من يدري؟ غداً الروس والأميركيون أيضاً. إننا بلد صغير والدنيا تتغيّر، كل شيء يتغيّر.

ثم قال في طيبة وهو يشعر بالشفقة عليّ كأني لا أفهم أبعاد ما يقول:

ـ خذ اقرأ النقاش. اقرأ ماذا يقول النقاش. إنه بين العشر والشعر يعلن نوعاً من الحقيقة.

ودخلت «الست» إلى الردهة بكامل حليها وحلاها.

وتنبه الرجل إلى أنها متبرجة أكثر من العادة فأراد أن يقول شيئاً ثم عدل. أما هي فقالت بثقة من يعرف كل شي:

ـ ماذا كنتم تقولون عن «افتتاحيات النقاش» لقد سمعت أطراف الحديث.

وأجابها بمتعة. وكأنه يرد على طفلته:

ـ كنا نتحدث عن الحرب. يبدو أن الحرب قد انتهت ألا تعتقدين ذلك؟

وأجابت ضاحكةً، كأنما مفاتيح الهدنة العالمية في حقيبتها الصغيرة السوداء:

ـ لقد قيل لي منذ أيام أن أتوقع شيئاً من هذا القبيل، إن الانكليز لا يخفون فرحهم بهذا الانتصار لكن ماذا سيتركون للفرنسيين بعد الآن؟

ثم أضافت ضاحكةً «أن قمر الصنوبر يكاد يكون مهجوراً في هذه الأيام».

كانت الست تتحدث دون شك عن معرفة تامة. فالإنكليز أصدقاؤها حقاً. وكذلك الروس، والسفير الفرنسي يأتي إلى هنا قبل أن يذهب إلى قصر بسترس، والجميع يحسدونها على نوعية ضيوفها إذا أقامت حفلة ما، بل إنني ذات صباح رأيت رجلاً كبيراً جداً يؤدي لها التحية ثم يرفع قبعته ويقّبل يدها مستأذنا بالجلوس وبعدها أخذ يطلب منها التوسط من أجله لدى القصر!..

كنت أعتقد من قبل أن هذا الرجل الوسيم الأنيق في بدلته وأوسمته وسرواله المقلّم مثل رجال الفرق الموسيقية، هو أحد المشاركين في الحكم فقد كان البلد كله يخاف اسمه، وكانت تقرع له الطبول في المواكب الرسمية، وكان الضباط يتأهبون في وجوده، لكن ها هو ذلك الصباح يرفع قبعته بانحناء، فيبدو العرق يتصبب من جبهته العريضة، ومز دون أن يأبه لوجودي راح يتوسّل إلى الست أن تحكي له مع أهل القصر لأنه لا يريد الذهاب إلى التقاعد في الموعد المحدد

عدنا إلى حديث الحرب، لكن بينما كانت الست تتحدث عن سياسات بيروت وصالوناتها، كان زوجها يتحدث عن أبعاد الحرب وأعماقها، بل أشك أنه تحدث في الآنيات في أي وقت. ولذا عاد ليقول:

- المهم طبعاً الآن، ليس الحرب... فها هي تأفل إل غير عودة، لكن المهم هو ما بعد الحرب، إن الناس سوف تفيق فجأةً لتكتشف أنها فقيرة وأنها لا تملك شيئاً، ولا تستطيع شراء شيء، فالنقود فقدت قيمتها، والسجائر هي العملة الرائجة في أوروبا والعالم القديم كله دمار في دمار، والحقيقة أني أعتقد بأن طعم النصر سوف يكون مراً على الحلفاء بعد حين.

وعدت أسأله من جديد: «هل هذا الفقر سوف يؤثر علينا؟».

وأجاب أيضاً في الكثير من العمق وهو يتطلع تحته إلى البحر:

- نحن نملك هذا الميناء، والحركة سوف تنشط في العالم بعد اليوم. ثم لدينا المطار وصناعة الطيران تكبر يوماً بعد آخر.

ثم ضحك للمرة الأولى تحت ذلك الجبين الجامد وقال مشيراً إلى زوجته:

ولدينا الإشعاع يقصدون هذه السيدة التي إلى جانبك!

تظاهرت بأني لم أسمع الإطراء الذي بدا وكأنه سخرية مني. أما هي فلم تسمعه أبدا، بل أكملت حديثها وكأنها تخاطب نفسها:

- سوف نرى غداً ماذا يقول الشيخ بشارة عن نهاية الحرب. إنه يعرف جيداً كيف يقرأ في مستقبل السياسة، وهو يتنبأ منذ أشهر طويلة بسقوط «المحور» لكن مجالسيه لا يصدقون كيف يمكن أن يقهر هتلر واليابان؟ لكن الشيخ يقول إن «المحور» قد تفكك، وأن الثغرة الإيطالية كبيرة لا تسد، وأن الأميركيين ينزلون بارجة حربية إلى البحر كل يوم. والروس تركوا للصقيع أن يبيد الجيش الألماني كما فعل من قبل بجيوش نابليون...

ولم تمض في استفاضتها الأنيقة، فقد رأت الانقباض فجأةً على وجه زوجها، فهو لم يكن يميل كثيراً إلى الشيخ بشارة مع أنه كان اسمياً في الكتلة الدستورية.

وكانت الست تقول لي أحياناً إنه لا يزال يتحدث عن أيوب تابت وشارل دباس وكأنهما واقع قائم، فأيقظته قائلة: «نحن الآن في عهد الاستقلال.. لقد مضى زمن أصحابك».

وساد الردهة الزرقاء الكلاسيكية المتدلية الثريات صمت طويل ما لبث أن قطعة هو:

- إن هذا الحكم يدخلنا في حالة من الإسراف السابق لأوانه. صحيح أننا بحاجة إلى كل شيء، لكن الكثير من المال يعني الكثير من التبذير. بل والكثير من الرشاوى وغيرها.

ووجّه الكلام بحدة لم أعرنها به وقال:

- وأرجو أن تبلّغني صديقنا بأن رائحة البنزين المتصاعدة من السيارات المكشوفة والمواكب الطويلة قد ملأت أنوف الناس. لا بد لنا من العودة إلى أيوب تابت وقبل أن نهدم هذه الدولة يجب أن نقيمها أولاً. هل «هذه دولة السلطان» أم دولة لبنان؟

ولاذت الست بالصمت، فقد كانت تعرف أنه لا يوجّه كلامه إلى الشيخ بشارة فحسب بل إليها أيضاً. فقد كانت هي جزءاً من الحلقة الكبرى المحيطة بالقصر من بعيد، بل كانت محسوبة على القصر أيضاً. لكن طبعاً ليس أكثر من غيرها. لم يكن أحد على «علاقة خاصة»، بل كانت الناس تغيب وتظهر في حدائق بشارة الخوري وشرفات شقيقه السلطان سليم مثل الشروق والغياب، يأتي من يأتي ويذهب من يذهب، وكان الشيخ بشارة ملهياً بصنع التاريخ بينما كان شقيقه «السلطان» ملهياً بصنع سعادة الناس أو لا سعادتهم، يعيّن من يشاء ويطرد من يشاء بكلمات قليلة يكتبها أحياناً

على علب السجائر «نوع أول». وقد طغى الأشخاص الذين أحاطوا بالقصر على أشخاص الجمهورية نفسها. وبدأت الصحف تلمح إلى المحسوبية في الوظائف، وبسبب ذلك أقام رياض الصلح مضادا وأحاط نفسه بمجموعة من صحافيي الاستقلال ورجاله دون أن ينغمس في إغراءات البذخ، وكان يعرف أنه بسبب ذلك سوف يظل القوة المواتية لقصر القنطاري، غير أن هذا التقاسم للسلطة وفي القوى خلق تجاذبا اجتماعيا دفيناً، بحيث أن بطلي الميثاق نفسيهما أصبحا على طرفي خشبة معلّقة بدقة: أي حركة تعني سقوط الاثنين.

لقد كان «لبنان الكبير» يأخذ شكله وحجمه بصعوبة وسط العواصف الكبرى والأهواء الصغيرة، وكانت الجمهورية تقوم من تلقاء نفسها وكأنها فراشة تولد من دودة القز. فقد طلع الاستقلال على البلد وكأنه مجموعة مغانم، أو أنه ذبيحة الساعين إلى السلطة والمال. وراح كل فريق يدعي أبوته وراحت كل جماعة تبني جمهوريتها وبدأت ملامح التحوّل تبدو عل البلد.

وكان «الأستاذ» أول من تنّبه إلى ذلك. ولذا فقبل أن يغادر الردهة كالعادة. نظر إلي وقال: وكان والدك أول من تنّبه إلى ذلك.. ولذا فقبل أن يغادر الردهة كالعادة نظر إليّ وكأنه لا يزال يكمل حديثاً طويلاً وقال:

- «إن أكثر ما يقلقني في كل هذه الفورة هو التحوّل الذي لا بد أن نواجهه. إن القرية تزحف على المدينة والمدينة تزحف على الناس. وسوف تفقد أشياء كثيرة بعد الآن. هذه السوق الكبيرة تخيفني أنهم يبيعون ويشترون فيها كل شيء».

ثم نظر إلى الست وكأنه يعتذر منها. إنه حقاً لم يكن يقصد أي شيء. وبذلت هي جهداً فورياً لكي تترك شعوره بالذنب يعذّبه. فقالت وكأنها تملأ الردهة فرحاً:

- العشاء على الشرفة هذه الليلة.

فابتسم وتمتم بعض كلمات الاعتذار ثم انسحب.

الحلقة الثانية عشرة

صارت الرابعة بعد منتصف الليل والمحامي الكهل يتحدث. والمحامي الشاب يصغي، وأخذ الفجر يشق طريقه إلى شرفة الفندق من كل مكان: من الوادي العابق برائحة الصنوبر، من الأفق على حافة البحر، ومن بيروت كلها، ومع الفجر رأى المحامي الشاب ملامح التعب على وجه مضيفه ومعها ملامح حزن هادئ، وراح يقرأ في تلك الملامح أيضاً قصة حب لم تكن، لقد جاء إليه في الأساس لكي يسمع منه قصة شقيقه لكن ها هو المحامي الكهل يروي قصة حياته كلها ومن خلالها يروي له حياة والده وحياة أمه وحياة بيروت، أو بالأحرى يروي كل تلك الحقبة الجميلة من المدينة التي تدلت زمناً طويلاً بين البحر والجبل، وها هو يجلس أمام الرجل الكهل المتعب ويتذكر ويدفع بعينيه عبر الأفق كأنه يريد أن يسترد كل ما مضى، ويريد أن يسترد بصورة خاصة طيف تلك المرأة التي تحوّلت من سيدة بيروت ومن امرأة تعرف فقط بأنها «الست» إلى أم موجعة تعرف بالحبيسة.

لكن هذه هي اللحظة التي يريد أن يعرف فيها كل شيء. فليطلع الفجر ما شاء.

وتطلع إلى الرجل التعب وقال له:

- إذن، لا قصة حب هناك!

- لا . هناك حب أعمى من جانب واحد، حب غير معلن، حب مضحك من دون بوح، وقد بالغ كل منا في قصته: شقيقك ذهب إلى أبعد ما يحتمل فهجر كل شيء، والست تجاهلت كل مشاعري بحيث أنها لم تحسم في شيء، لقد عاملتني مثل كرسي أو آنية فضية، لم تكسرني منذ بداية الطريق بل تركتني معلّقاً حولها مثل أي شيء آخر، برغم أنها كانت تعرف أن مشاعري لم تكن عادية ولا عابرة، ولذا ها أنا اليوم عازب أنتقل من جناح في فندق إلى غرفة في فندق آخر.

شعر بحزن حقيقي نحو الرجل، لكنه شعر بمضعف أكثر لأن يسمع المزيد عن أمه. عن تلك الصورة التي يعرفها حق المعرفة...

- هل كانت حقاً عظمة إلى هذا الحد؟

- لقد كانت طيفاً غير عادي يرتدي ثياباً عادية. عطراً طاهراً يملأ الناس هناء حيث تحرّك، لكن ذلك الجمال كان كثيراً جداً على بيروت، ولم يكن الآخرون يصدقون أنه يمكن لامرأة أن تكون في ذلك الجمال وفي ذلك النفوذ ومع ذلك تبقى في تلك الطهارة.

- وعلاقتها بالقصر؟

- علاقتها بالقصر مثل علاقتها بالبساتين، مثل علاقتها بالجمعيات الخيرية. تعطي ولا تأخذ. تضحك وتبتسم وتحدث الجميع وتملأ الدنيا تواضعاً، لقد كانت هناك دسائس كثيرة حول القصر وحول النافذين أما هي فلم يتعدّ حديثها مع أحد. الشكليات غير المؤذية على عكس ما يظن الجميع؟

ـ لكن ألم يكن يعي شقيقي هذا الأمر حتى يسافر؟ ألم يكن يعرف كل يعرف كل هذا الذي تقوله؟

ـ لست أدري، لقد كان شقيقك حزناً غامضاً لا يعرف أحد شيئاً عنه. كان دائما منفرداً وحيداً برغم كل ما يحيطه، لكن أحداً منا لم ينتبه إلى ذلك إلا بعد اختفائه، فقط عندها أخذ كل منا يخمّن ما يشاء ويفر ما يشاء، أما أنا فقد انسحبت عل الفور، لقد أغلقت الست العالم من دونها ولم يعد ثمة مكان لأحد بعد ذهابه. ومن دون أن تتحدث بكلمة واحدة وضعت نهاية لكل شيء وراحت تغرق في عالمها وحزنها وفي بئر العزلة التي حفرتها لنفسها، بحيث لم يعد ممكناً لي البقاء قربها. ومن دون أي سبب أغلقت الأبواب على عالمي أيضاً. لا يخّيل إليك أنه كان لدي شعور بالذنب، لا، غير أنني كنت أعرف أن عالمي، ذلك العالم الجميل قد انهار أو لا بالأحرى سقط جزء كبير منه على الأقل، ولذا تقاعدت دون أن أعلن ذلك وتخلّيت دون أقول ذلك، أما في الواقع فأنني لم أقم بعمل واحد مهمّ منذ اختفاء شقيقك، لقد تركت مكتبي في يد شركائي وانصرفت إلى تمضية الحياة في طاولة الزهر وشرفات الفنادق.

وخطرت للمحامي الشاب تلك اللحظة فكرة أطربته:

ـ هل تريد القيام بعمل مهم الآن؟

ـ في هذا العمر؟

ـ أجل، في هذا العمر!

ـ ...

ـ اسمع. إنك تقريباً بلا عمل كما تقول، وأنا غارق في أعمالي. والآن فقط عرفت كل شيء. الآن عرفت أنك بريء وعرفت أكثر من أي وقت مضى كم هي عظمة أمي، ولذلك ومن أجلها أرجو أن تساعدني في البحث عن شقيقي، إني واثق من أنه في السنغال، أما كيف وأين فلا أدري. لكنني وأنا في كاويلاك استطعت أن أشم رائحته. لقد عرفت أنه في تلك البلدة الصغيرة أو حولها، لكن أنّى لي أن أعرف وجهه وقد غاب وعمري أربع سنوات، وكيف له أن يعرفني إذا صادفني وقد تركني طفلاً. لكن ثمة شعوراً غريباً خامرني بأنه كان يلاحقني وبأنه عرف أنني أبحث عنه فهرب، لكن يا إلهي. كيف له أن يعرف ذلك.

ـ حسناً ولكن ماذا تريدني أن أفعل؟

ـ أريدك أن تتولى المسألة، فإذا عثرت عليه تكون قد فرحت فرح عمرك وإذا لم تعثر عليه قد تكون قد أرحت نفسك لا من عقدة الذنب بل من الشعور بالقصور.

ـ إنك لا تقصد أن أذهب إلى السنغال...

ـ بل هذا ما أقصده بالضبط. أقصد أن تحمل حقيبتك وتقاعدك وعزلتك وتطير إلى السنغال، بل ألا تعود من السنغال إلاّ وقد عنه عرفت شيئاً ما.

لفحتها الشمس الآتية من خلف الجبال وهي لا تجر خلفها إلا غيمة واحدة.

وبدأت الحياة تدب في الفندق وفي المصيف، ودارت من تحت الشرفة أصوات فناجين القهوة ثم أخذت نشرات الأخبار تختلط بعضها البعض. كل مذياع يتوقف عند المحطة التي يريدها، وكل إذاعة تقول الأخبار التي تريدها، ها هو الصباح يعلن يوماً آخر من أيام الحرب وعاماً آخر وربما عقداً آخر أيضاً، وراح المحامي الكهل يفكر في السنغال والرحلة إليها والمحامي الشاب ينتظر الجواب. وأخيراً قال له في تردد:

ـ يجب ألا تضحك مني، لكن هل تعرف أنني لم أغادر بيروت في حياتي؟

ـ أنت؟

ـ أجل، أنا. لم أغادر بيروت مرةً واحدة. لم أحمل جواز سفر ولم أشاهد الطائرات إلا من الأرض، أما الباخرة فذهبت إليها زائراً متفرجاً ذات يوم.

ـ إني لا أصدق ما تقول.

ـ مرات كثيرة حلمت بالهجرة. مرات كثيرة فكرت في أن أحزم حقائبي، لكني لم أشتر حقيبة سفر واحدة.

ـ إذن؟

ـ إذن، سوف أذهب غداً لأشتري لنفسي حقيبة وأستصدر جواز سفر وتذكرة. لن يكون لدي أجمل من هذا العمل.

ـ لقد أفرحتني حقاً. وسوف أبرق إلى محامينا هناك لكي يكون في استقبالك. على سلم الطائرة في داكار في كاويلاك. إن الرجل من كبار محامي البلاد وهو يدعى الحاج عثمان ولديه ملف أخي منذ غادر فرنسا إلى الجزائر.

قال ذلك ووقف كأنه حقق انتصاراً ما. لقد شعر أنه أعاد الكثير من الحياة إلى هذا الظل الذي اختار الظل كان يعرف أنه سوف يمنحه عملاً يفرحه ويعطيه معنى لحياته. وحتى لو عاد من السنغال فقط بذلك السراب المتكرر الذي يلاحق الإنسان في البلاد الحارة، فأنه سوف يشعر بالارتياح.

ـ متى أسمع منك؟

ـ خلال يومين.

ـ وهل تبلّغ الست سلفاً بأنك ستتولى هذه المهمّة؟

وانتفض الرجل الكهل ضاحكا:

ـ لا. لا. فلندع ذلك إلى حتى. لا تدعها تعيش آمالاً غير مؤكدة منذ الآن.

ودّع ضيفه النادر وعاد إلى سريره، لكنه اكتشف أن تعبه قد تحوّل الآن إلى يقظة، لقد أعاد إليه ذكرى ثلاثين عاماً مضت، أعاد إليه صورته يافعاً يعبر بيروت من مكان إلى مكان مشياً على قدميه، صورة المقاهي العتيقة. صورة تلك الغرفة الرطبة المطلّة على البحر، صورة بيروت في المساء وهي بعد مدينة صغيرة هادئة تفوح منها روائح الياسمين ويكثر فيها الزيتون والطيبون وتحيات الصباح والمساء بلا حساب، صورة مدينة زالت في نفسها واختبأت تحت حجارتها وتدثرت تحت رماد الآخرين، صورة مدينة أصبحت عصية عليه، شارعاً وراء شارع، وزقاقا خلف زقاق ويوماً بعد يوم وأمس بعد أمس.

آه كيف تنتحر المدن دون تراجع. ودون تردد. ترى هل كانت انتحرت بيروت لو أنها عرفت كم كانت جميلة؟ كيف يمكن للمدن أن تشق نفسها بحبل من الياسمين؟ كيف يمكن للحجارة أن تنتحر ألف مرة وبمسدسٍ واحد؟ كيف يمكن للمدن أن تصير مثل أسطح البحيرات، دوائر من المدن وحلقات لا نهاية لها وأزقة غارقة في الخوف والرماد وأقبية تعيش فيها الناس ليلها ونهارها. ها هي البساتين تتحوّل إلى مبانٍ مرصوفة من الحجارة، والحجارة تتحوّل إلى أقبية، الفجر في الأقبية والظهيرة في الأقبية. وفي الأقبية أيضاً تغيب تلك السماء الزرقاء الصافية التي كانت تناطح المصابيح والقناديل لترافق السابلة على شاطئ البحر وعلى التلتين، واذا تسطحت الأرض واذا انبسطت واذا ارتفعت كشيء من الهضاب الهندسية.

لقد خانته بيروت، أعتقد أنها سوف تظل في الحياة مدى الحياة، ولم يصدق الحكايات التي تقول انها غرقت ذات يوم تحت الزلازل ولا صدّق حكايات الفاتحين ولا صدّق المؤامرات والمتآمرين والرجس والدهاليز والأفكار التي تنبت في الدهاليز ، كان يعتقد أن بيروت ستظل بيروت، وأنه سوف يفيق كل يوم وهي بيروت، وكل يوم سوف تظل جدران البيوت العتيقة مغطاةً بزهر الأبواق البنفسجية وكل يوم سوف يتطلع في البحر فإذا بركة المساء وقد انعكست عليها الأضواء الناعسة.

من يغادر بيروت هكذا؟ من يفكر في ركوب البحر أو الهواء إلى مدينة أخرى، وأي فرح يمكن أن يكون أكبر من هذا الفرح المتكرر كل لحظة. أهل وحب وأصدقاء وبحر مثل الفيروز المصقول، فإذا اشتد الحر على مقربة من سطحه تفتحت لك غابات الصنوبر في وسع المدى والندى والهناء.

طبعاً لم يغادر بيروت، وحين راحت تكشف عن وجهها البشع لم يصدق. كان يعرف من التاريخ أنها مدينة متمردة ذات مواقف وهبات وأسوار. لكنه لم يكن يعرف منها هذا الوجه: وجه التشوّه الذي لا نهاية له، ووجه الفرقة ووجه الاغتصاب والسرقات والحياة من دون كرامة والموت من دون حرمة والعيش دهراً بين الموت والحياة، كل شيء معلق بين الموت والحياة. الرجال والأطفال وذلك الربيع الذي كان ما إن يطل حتى يصبح ربيعاً في النفوس وفي الأعين وفي الابتسامات فإذا به الآن ينبت من الأعشاب في البيوت المهدّمة ومن الطحلب في الساحات المهجورة.

مع ذلك لم يهاجر، لم يتركها مرة واحدة. كان يفرّ من مكان إلى مكان ولكن في حديقة واحدة، مثل الأرانب الخائفة. يحفر أنفاقه بيديه ويذهب من قبو إلى آخر ومن شرفة إلى أخرى كما يشاء السادة المسلحون. وكان يفزعه منظر السادة المسلحين، لا على نفسه، بل على كل ما حوله. كان يعرف أن كل شيء سوف يسقط تحت أحذيتهم دون حساب، الناس والقانون، والقلوب والأفئدة، الأصدقاء والأعداء والأبرياء، وكان يفزعه أكثر وهو يرى بيروت تشتعل بأوراق الهويات، حين افتقر صانعو الحرب إلى الحطب لجأوا إلى الورق يلفون به الناس ويحّولونهم إلى رماد، وكم تكدّس الرماد فوق الرماد وكم ذرفت إلى البحر دموع وكم شاهد قيماً تسقط وتتهاوى مثل أقواس النصر التي فات زمنها وذبلت أوراقها وتفككت فوق بعضها.

هل هذه حقاً بيروت؟ هل هذه حقا وسادة الشرق التي أسندت إليها رؤوس المتعبين والضالين والمشرّدين وطالبي المتعة والجمال والحب والعشق والأحلام؟ هل هذه حقاً مدينة الكتب والدفاتر والأقلام؟ أمن هنا حقا مرّ

لامرتين ووضع نشوته الأزلية في قواف، والقوافي في دفتي كتاب؟ أفي هذا الميناء الصغير هبط الرحالة والمسافرون والفاتحون والمفكرون وأساطين الكون؟ أليست هذه هي المدينة التي رفع تشرشل سيجاره في الهواء وقال متعباً: خذوني إلى بيروت، ولم يفعل ذلك إلا وقد انتشى بكل لذات الانتصار ولم يتبقّ عليه سوى تلك النشوة الكبرى، ذلك الاكستاز الحقيقي على كورنيش المدينة حيث يختلط باعة الكعك والبوظة ورجال الدرك بأشباح مخفية تبيع السعادة والهناء وزرقة المتوسط وأشجار النخيل وتلك المنارة الساهرة على المسافرين والعائدين .

لقد كان الناس تهاجرون لتعودوا، تسافرون لكي ليستمتعوا بالعودة إلى بيروت، لذا هو، قرّر أن يمارس لذة العودة في البقاء.

الحلقة الثالثة عشرة

هبط في مطار داكار كمن يهبط في الضياع، كل شيء كان جديداً عليه. الريح الحارة التي تلفقته على سلم الطائرة والوجوه والناس وهذا الكسل الذي تنعم به المدينة منذ المطار. وما أن دلف إلى الدائرة الجمركية حق اقترب منه رجل طويل القامة ووضع يده على كتفه:

- أستاذ شفيق؟

وعرفه طبعاً على الفور. وفي لحظات كان الحاج عثمان يضعه في سيارة التاكسي، وراح يتحدث إليه دون توقف لكي لا يشعره بالغربة. قال له في شيء من الاعتذار إنه لا يقود سيارة بنفسه مذ كان يافعاً. وسأله عن الرحلة: هل كانت متعبة، وبيروت، وبيروت، كيف هي،لكنه لم ينتظر طبعاً ليسمع الجواب. كان يعرف من الصحف والإذاعات سلفاً كيف هي، إنما هو سؤال تقليدي مهذّب يسأل. وما إن اتخذت السييارة طريق «كاويلاك» حتى دخل الحاج عثمان في التفاصيل الحقيقة:

- لست أدري كم ستمكث بيننا، لكن يخيّل إلي أن المسألة طويلة إذا كنت تريد الانتظار حتى النهاية، من جهتي لا جديد في الملف.

وسأله المحامي العتيق وقد تحول في الطائرة إلى شرطي عتيق لكثرة ما طرح على نفسه من أسئلة وأجوبة:

- هل كتبت إلى الجزائر؟

- أجل. كتبت إلى الخارجية هناك، وقد أحالتني الخارجية إلى مكاتب جبهة التحرير القديمة، لكن لا اسم له ولا ملف. أنت تعرف أن كثيرين تمرّدوا على الخدمة في الجيش، لكن بعضاً منهم انضم أيضاً إلى المقاتلين الجزائريين، وهو ليس هنا ولا هناك، طبعاً ثمة بعض اللبنانيين لكن لا اسم له بينهم.

وأخذت السيارة تقطع الطريق ببطء إلى «كاويلاك»وهو يتصّبب عرقاً. أما الحاج عثمان الذي ولد في هذا الحر واعتاده فلم يمد يده إلى جبينه ليمسح نقطة عرق واحدة، وترك العنان لمخيّلته، وراح يتذكر الروايات والكتب، ثم أخذ يستعيد بكل دقة ما قرأه عن حرب الجزائر.

وفجأة خطرت له خاطرة مهمة، وقال للحاج عثمان: أعتقد أننا قطعنا نصف الطريق الصحيح، أما الآن فيبدو أننا على الطريق الخطأ، إننا نبحث عنه تحت اسمه الحقيقي، لكن هل يمكن أن يترك الجيش الفرنسي ويظل تحت اسمه الحقيقي. ولنفترض أنه انضم إلى المقاومة الجزائرية فهل يفعل ذلك باسمه أو باسم مستعار؟ لا بد أنه منذ اللحظة التي أعلن فيها تمرّده اختار لنفسه اسماً مستعاراً أو اسماً قتالياً.

وهز الحاج عثمان رأسه موافقاً:

- أجل. لقد خطر لي ذلك أيضاً، بل أني ذهبت إلى زميل لي كان يقاتل في الجزائر ورويت له القصة، وأخذنا نتحزر معاً حول الأسماء القتالية التي يمكن أن يكون قد اختارها بنفسه.

- لا بل أنه اختار اسماً ينبئ بحالته كما يفعل الشعراء عادة..

ماذا مثلاً؟

وفرك وجهه بيديه.

- لا أدري. لا أدري.

توقفت السيارة أمام الفندق فعرفه فوراً، لقد وصفه له زميله الشاب بكل دقة، البوابة العتيقة والكنبات العتيقة والمروحة البليدة ورجل الاستقبال الذي يمضي الوقت متطلعاً في اللاشيء. لكن هو استخلص الأمثولة وسمع التحذير، ولذا جاء معه بالكثير من الكتب لكي يستعين بها على قضاء الوقت في كاويلاك.

لكن ما إن دخل الغرفة حتى شعر فجأة أن الغربة أقوى منه. لقد تركه الحاج عثمان على أن يعود إليه صباح اليوم التالي، وها هو وحيد، للمرة الأولى في حياته، في غرفة جرداء في مدينة غريبة. تذكر فجأة غرفته الرطبة المطلّة على البحر، لكن غرفته هذه لا تطل عل شيء، سرير واطئ وسقف مرتفع، وصورة رجل الاستقبال تحت وهو معلّق النظرات في اللاشيء.

وخطر له أن يبكي.

دائماً كان يلغي الحزن بالبكاء، لكن أي حزن هذا الذي يواجهه الآن. إنه حزن رطب وجاف معاً، حزن من دون دموع. حزن مجبول بالشفقة واللعنة، مالذي جاء به بعد كل هذا العمر إل كاويلاك. لقد كان يقرأ في الكتب عن فرنسا وعن إنكلترا وعن قصور النمسا، فلماذا تكون أول رحلة إلى كاويلاك ليضرب في رمالها بحثاً عن المجهول، بحثاً عن رجل دمر

الأكثر من حياة لأنه اختار الفراغ. لقد أطفأ الولد الهارب حياة والده مثل شمعة وأمه تذوب الآن مثل سراج. وشقيقه حزين. وشقيقته تمضي نصف الوقت في دعم زواجها والنصف الآخر إلى جانب أمها. لماذا اختار أن يدمّر كل من حوله لمجرد أنه قرر الهرب. ولماذا استمر في هذا التدمير؟

كاد أن يغضب. لكنه راح يتفّرج في السقف العالي على صور جميلة من الماضي. كان الحاضر بائساً. فرأى نفسه هو أيضاً يفرّ إلى الماضي. ترامت له تلك الأيام الجميلة ساعة ساعة. وراح ينتشل لمحات الأيام الخوالي من بين أنقاض بيروت. صورة المكتب. صورة الأعمدة المعلّقة في ساحة المعرض. صورة الأصدقاء. صور الاستراحات في مقاهي ساحة البرج.

عبثاً.

الوقت يمر ببطء في كاويلاك والسقف العالي يدور حول نفسه لزجاً وبطيئاً والنافذة العالية تسدّ الرؤية. فتح كتاباً ثم آخر ثم ثالثا ثم طواه.

المساء . أول مساء في كاويلاك. لا يزال في بدايته. لن يتركه في هذا الكآبة. نزل إلى صالة الاستقبال فرأى الموظف لا يزال يتلهّى باللاشيء وفي ركن الصالة الصغيرة شاهد كتلة من الضجر. لعلّه مسافراً آخر يبحث عن شيء ما في كاويلاك. فال للموظف:

- هل من مكان نذهب إليه للعشاء؟

وفكر الموظف طويلاً. وبعد تردّد قال في تساؤل:

- العشاء؟؟

- أجل. العشاء.

وراح الموظف يردد كأنه يبحث عن كنز مفقود: العشاء؟ العشاء؟ أجل، العشاء، حسناً حسناً. لقد قلت لي العشاء، ما رأيك في مطعم الفندق؟

ونظر إلى الموظف وراح يردّد بدوره:

- مطعم الفندق، مطعم الفندق، آه، مطعم الفندق. لا. لا أريد مطعم الفندق. هل هناك من مكان آخر في المدينة؟

وقال الرجل الراكد في ركن البهو وسأله دون مقدّمات:

- الأستاذ من بيروت؟

وهزّ رأسه بالإيجاب.

وعاد يقول له:

- هل هي زيارتك الأول إلى كاويلاك؟

ومسح شعره الأبيض وجبينه الأجعد من العرق وقال:

- إنها زيارتي الأول إلى أي مكان.

وقال الرجل:

- لقد عرفت ذلك منذ دخولك إلى الفندق. سبحان الله. المسافرون العتاق يعرفون المسافرين الأوائل مذ اللحظة الأولى.

- وأنت؟

- هذه زيارتي المئة إلى كاويلاك، إنني أجيء إلى هنا منذ سنين فنحن نملك مصنعاً في المدينة، أشقائي جميعاً هنا، واني أدعوك الليلة إلى

العشاء عند أخي الكبير. لا مطاعم لك في هذه المدينة يا صديقي ولا خيار أمامك. عبثاً تبحث.

حقاً لم يكن أمامه خيار آخر. النوم والأرق أو السهر مع هذه العائلة المجهولة. لكن ما إن دخل المنزل حتى خيّل إليه أنه ينتقل من حَي إلى آخر في بيروت. كانت إفريقيا تعيش حرّها في الخارج وفي الداخل تمتد البسطة الفوقا والبسطا التحتا وشارع الحمراء وبسط وسجاد من صنع القرى. حتى المساند صنعت في لبنان. لكنه اكتشف أيضاً أنه إلى تحت هذا السقف انتقلت كذلك الحرب. ما إن عرف بنفسه وتعرّف إلى مضيفيه حتى بدأ حديث الحرب. رجلاً فرجل، وشخصاً فشخص. وزقاقا فزقاق. وثكلى فثكلى، وانفجار فانفجار. غير أن الطرف ما لبث أن تدخلت. هكذا يخلط اللبنانيون كل شيء ليصنعوا حياة لهم. الجد بالمزاح بالتجارة بالوطن بالغربة بمصنع البلاستيك.

آه. تذكر أحدهم. على سيرة البلاستيك. تلك الصنعة اللبنانية العتيقة: التجارة! ونظر إلى الأستاذ شفيق ليسأله: خير. ما الذي أتى بك إلى كاويلاك.

فاجأه السؤال. ما الذي جاء به حقاً إلى كاويلاك؟ هل يستطيع أن يقول لهم؟ هل من الضروري أن ينشر القصة كلها في البلد؟ وراح يبحث عن كذبة بسيطة فلم يجد.

وعاد مضيفه يسأل:

- تجارة؟

لا: أجاب.

- إذا ماذا؟ هل أنت في حاجة مساعدة؟

- لا. شكراً.

لكن مضيفه أصرّ:

- أرجوك، أرجوك، محسوبك نصف البلد هون.

ولم يكن ذلك كثيراً. لم يكن كثيراً أن يكون المرء نصف كاويلاك. لكنه لا يريد شيئاً من هذه المدينة. عاد الحضور إلى حديث الحرب وثار الضجيج من كل مكان. ثم تدخّلت الطرف مرة أخرى. وقال كل واحد منهم بدوره لو كان حاكماً ماذا كان يفعل. وراحت الرؤوس تتطاير حول العشاء ثم تطايرت الطرف من جديد.

واعتذر ليعود إلى الفندق ليبدأ غداً أصعب مهام العمر.

الحلقة الرابعة عشرة

في المساء، استفاق على رائحة الرطوبة وصوت الحر، وخيّل إليه أن الشمس دخلت من النافذة قبل الشروق، وعبر المروحة المعلقة في السقف. ودخل يستحم فلاحظ أن الماء مخلوط بالملح. والملح مخلوط بالغبار، وكانت أرض الحمام من البلاط الرخيص الذي أكله عفن المياه الآسنة، وبالرطوبة أيضاً امتلأت زواياه. وكاد الطحلب يبين فيها، وتطلّع من النافذة الصغيرة المشبكة بأعمدة الحديد الرمادية الصدئة، فرأى خلف الفندق بورة ترعى فيها الإبل والماعز، كان مقدم الشارع سيارات متناطحة وحداثة أو شبه حداثة، أما خلفه فامتدت أفريقيا ببساطتها فتركت الإبل تنعم بالقيلولة حتى في الصبح.

ترك مفتاح الغرفة مع موظف الاستقبال، واستدل منه إلى مكتب الحاج عثمان عبر الطرق.، وبدا له أن ذلك الموظف مثل الوقت، لا يتغير ولا يتحرّك ولا ينام. دائماً هناك، دائماً خلف الطاولة، دائماً لا يفعل شيئاً. أعطاه المفتاح وخرج إلى الشارع فلفحه الحر الذي استقبله أمس، الحر هو قوس النصر للقادمين إلى «كاويلاك». وسارع إلى عبور الطريق لكنه تنبّه فجأة إلى بائع الفستق عند الزاوية فعاد سريعاً، وتفقّد جيوبه فاكتشف أنه لا يحمل نقداً سنغالياً، فكاد يمشي، لكن البائع الطويل القامة لاحظ مشكلته، فأمسك كيساً من الفستق وقدمّه له قائلاً: لا يهم. تدفع غداً.

إنها القصة نفسها تتكرر مع هذا البائع الطيب، أخذ كيس الفستق الحار بسرعة ثم عبر الطريق من جديد. وفي لحظات كان عند الحاج عثمان يشرب الشاي ويتبادلان الأحاديث حول «كاويلاك». وقطع الحاج الحديث فجأةً ليدخل في صلب الموضوع:

- هل نستطيع الاستماع إلى الذين رأوه؟ هل يمكن لنا جمع المزيد من التفاصيل؟ صحيح أن شقيقه جاء إلينا ببعض الحكايات، لكننا كلما أمسكنا خيطاً فقدنا خيطاً آخر.

وإذ كان يستمع إلى الحاج شعر كأن صاعقة نزلت عليه فمزّقت رأسه.

لقد تذكر فجأةً ملامح الرجل الذي قابله قبل دقائق. الرجل الأسمر الطول القامة الذي يبيع الفستق عند الزاوية، الرجل الزنجي لكن من دون شفاه عريضة، الإفريقي لكن من دون شعر أجعد. لقد لمحه لحظات قليلةلكن شعر أنه يعرف تلك اليدين اللتين وضعتا الفستق في كيس صغير. شعر أنه يعرفه، شعر أن ثمة بقايا ملامح من ملامحه، تذكر الحكايات التي رويت عنه.

ألم يقولوا إنه شوهد يبيع الفستق في ساحات السنغال؟

وكاد ينهار. وأخذ يتصّبب عرقاً بارداً في حر «كاويلاك». ثم طرد الفكرة من جديد. لا ليس هو. لا يمكن أن يكون هو. هل تفعل الشمس كل هذا الفعل في الناس؟ هل يتحوّل الناس إلى أفارقة لمجّرد أنهم عاشوا في إفريقيا؟

لا. إنه هو. إنه ذلك الشاب الرفيع المديد القامة الذي كان يراه في طرف الصالون منعزلاً، منفرداً طوال الوقت. بل انه صورة والده لولا

اختلاف اللون، قامته، جبينه الضيق، عيناه، بل أكثر من ذلك، صوته أجل صوت والده.

كيف لم يتوقف عند هذا الصوت عندما قدّم له الرجل كيس الفستق.

أحس أنه يكاد يصاب بالشلل، ولم يعرف ما إذا كان هذا شعور الفرح أم شعور الخوف، ماذا سوف يقول لرجل أضاع عمره في بيع الفستق في ساحات إفريقيا؟ كيف يطلب منه أن يعود؟ ولماذا؟ هل يكفي أن يروي له ماذا جرى لأمه ليعود؟ هل هناك مكان ما في قلب هذا الرجل الذي اختار منفاه وأصرّ عليه يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام وعقداً بعد عقد؟ وهل يعود الآن ليلملم تلك الثروة التي تركها والده بينما اختار أن يمضي شبابه تائهاً بعيداً، لا يكتب حتى كلمة واحدة؟

لقد أراد دون شك أن ينساه الجميع وإلا فلماذا لم يعد؟ ألم يترك صديقاً واحداً على الأقل يعود إليه أو ذكرى أو شجرة أو وسادة؟ كيف يختار المرء أن يعيش كل هذا العمر بعيداً عن أمه وأهله؟ وغاب في غيمة من التساؤل والوجل، لكن الحاج عثمان ما لبث أن أيقظه:

لقد خبأت عصير جوز الهند في هذا البراد الصغير، ومدّ يده يتناول الكوب من الحاج عثمان، لكنه عاد فوضعه بعجل على المكتب، وتفقّد نظارتيه، ثم راح يعدو كالأرانب إلى زاوية الفندق.

لقد خشي أن يكون هو أيضاً قد عرفه فلجأ إلى الفرار، لكنه وجده هناك، واقفاً، مثل عادته، يسند قدماً إلى الجدار وأخرى على الأرض. لقد أصبحت هذه الوقفة جزءاً منه، يتحمّل بها الحر والنهار والضجر. واقترب منه كمن يقترب من طريدة خوفاً من أن يطير، اقترب بهدوء،

بهدوء. كأنما أحد لا يراه كأنما الشارع فارغ وهو تحت شجرة باسقة يلاحق عصفوراً هارباً.

اقترب وتطلّع في عينيه، وأحسّ كأنه سوف يتراجع أو يحلق أو يفرّ مرة أخرى وإلى الأبد، وفي هدوء خائف قال له:

- مرحباً.

وتطلع البائع فيه، وحرّك مجامر الفستق قليلاً ثم سوّى قلنسوته الصغيرة، وقال بالفرنسية كأنه لم يفهم:

- ؟؟

- مرحباً.

وعاد البائع يحرّك المجامر، ثم تطلّع فيه من جديد، وأنزل قدمه عن الجدار واستند إلى الزاوية خوفاً من السقوط تحت المفاجأة.

واقترب منه المحامي الكهل وضمّه إلى صدره وراحا يتعانقان ثم يتعانقان. وتطلّع المارة إلى المشهد بالكثير من الفضول، إنها أول مرة يشاهدون فيها بائع الفستق يتحدث إلى أحد فكيف بالعناق.

وقال المحامي الكهل:

- اسمع، لا تقل شيئاً، لا معنى لأي كلام، فقط تذهب الآن إلى بيتك وتحزم أمتعتك ونغادر معاً إلى بيروت.

ووقف بائع الفستق يبكي، ثم أخذ يجهش في البكاء.

وشعر المحامي الكهل أن الكلام ضئيل أمام البكاء، فراح يغمره ويربت على كتفيه. وفيما هو غارق في هذا الذل العاطفي على رصيف ترابي في

«كاويلاك» جاء الحاج عثمان راكضاً يبحث عنه، فلما رأى بائع الفستق لطم وجهه بكفيه، إذن، ها هو لقد كان عليه أن يعرف ذلك بمجرد أن قيل له إن الرجل الضائع شوهد يبيع الفستق في ساحات السنغال، فقد كان يعرف من ملامحه أنه ليس سنغالياً. كان يخامره شعور بأن الرجل ليس من «كاويلاك». فالحاج يعرف البلدة أسرة أسرة، يعرف غرباءها وأهلها والسياح، لكن من أين له أن يظن أن هذا الرجل هو أيضاً الرجل نفسه الذي يشارك في البحث عنه منذ سنين، كيف يبحث عن رجل وهو تحت أنفه وأمام عينيه صباح مساء.

وتجمع الناس عند زاوية الفندق في تساؤل، وجاء بعض الباعة من الساحة المليئة بالنخل يستوضحون، ووقف بائع الفستق ساهماً، لقد صمت كل هذا العمر والآن عليه أن يحكي، لا بد أن يحكي غداً لباعة «كاويلاك» وللمارة الذين أصبح جزءاً من حياتهم، وللأستاذ شفيق، هذا الرجل جاء من آخر الماضي لكي يبحث عنه، صحيح أن هناك فارقاً في العمر لكن كليهما ينتمي إلى حقبة واحدة وشباب واحد وزمن واحد، كلاهما عرف وتمتّع بذلك السقف النادر في صوفر، سقف السماء الصافية وقد تراكضت نجومها تلمع في زرقة العتم المضيء.

لقد رأى نفسه وسط فيلم سينمائي يبحث عن مخرج، البطل هناك والاستوديو هناك والمؤثرات، صوتية وبشرية وغيرها، لكن الجميع في حاجة إلى من يطلعهم من تلك اللحظة إلى مشهد آخر، وهكذا تدّخل الحاج عثمان وقال كالعادة، في لهجة حاسمة:

- تفضلا إلى مكتبي هناك نتحدث.

وقال الأستاذ شفيق معترضاً:

- لا. نذهب إلى الفندق. هناك يستحم قليلاً ثم يذهب إلى منزله ويجمع حوائجه.

- «يستحم قليلاً»؟!

قالها الأستاذ شفيق وكأنه يتحدث عن ابنه. وسمعها هو فرنت في أذنيه وكأن والده يقولها. وشعر بشيء من الخفر والحياء. منذ دهر لم يتحدث إليه مخلوق بمثل هذه الحميمية. ومنذ عمر لم يشعر أنه قريب من إنسان كما هو قريب من الأستاذ شفيق.

ثم بدأ يفيق شيئاً فشيئاً من الصدمة. بدأ يعرف أنه ليس في حلم بل في حقيقة. لقد كان هذا حلمه كل يوم. يقف عند الزاوية ويحلم. وقف في شوارع باريس وحلم. قاتل في شوارع الجزائر وحلم الحلم نفسه: أن يلتقي في قلب الشارع من يعيده إلى أهله. لكنه انتظر من دون جدوى. لقد كان صعباً، بل مستحيلاً عليه العودة من دون أن يدعى إلى ذلك. كان يعرف أنه حطّم كبرياء الجميع وأنه دمّر حياته وحياة غيره. ولذا كان في حاجة إلى من يغفر له. كان يشعر أن كثيراً عليه أن يطلب الغفران مباشرة ومن دون واسطة. وكانت الأيام تمّر فتكدّس خجله وخوفه وندمه وتدفعه أكثر إلى الحياة التي هو فيها. ثم أصبحت هذه هي حياته. انه نقيض لحياته الأولى. نقيض لشخصه. نقيض لكل شيء.

وقطع الحاج عثمان التأمل عليه:

لا، لا. نذهب إلى مكتبي. هناك الجو أكثر هدوءاً.

واتجها إلى المكتب وكاد أن يترك صدر الفستق الحار مكانه، لكنه عاد فحمله، وتطلّع إليه الأستاذ شفيق وكأنه يعده بثروات الأرض:

- اتركه هنا، لن تعود في حاجة إلى هذا الصدر بعد الآن، أنت عائد معي إلى أهلك ورزقك، شعر بخجل من هذا الفرن المتحرّك، كيف يتركه هكذا في لحظة واحدة، ألم يختره هو من بين المهن؟ ألم يقرر أن هذه هي المهنة الوحيدة التي تبعده عن العالم، فلا يعود هناك أسئلة وأجوبة. يعبّئ صدر الفستق في الصباح وفي المساء يعود بما تبقى وبثمن ما باع، لا أسئلة لا أجوبة، بل عذاب وتكفير من الصباح إلى المساء، وفي المساء يعود.

آه، يعود إلى أين؟

يعود إلى بيت في طرف «كاويلاك» في الحي الفقير من المدينة، بيت من الطوب الرخيص وسط واحة متواضعة، كيف سيأخذ الأستاذ شفيق إليه، بل كيف سيطلعه على حياته الأخرى، الحياة التي أصبحت هي حياته. كيف سيقدمه إلى زوجته الأفريقية وإلى أبنائه الأفارقة؟ ماذا يقول لأبنائه الآن؟ طبعا زوجته تعرف الحقيقة، وهي التي تعرف أيضا أنه غادر بيروت من أجل امرأة، ذلك النهار، في صوفر، كان عليه أن يختار بين السفر وبين الانتحار، لم يكن هناك خيار آخر في خيارات المشاعر. كان كلاهما جنوناً، لكنه اختار الجنون الأقل جنوناً. لم يذهب إلى المطار، لم يذهب إلى الميناء، لم يأخذ قطار الشرق السريع. بل وهو يفكر كيف يترك، مرت تلك القافلة الفرنسية فتبعها، ثم راح ينتقل من خطأ إلى خطأ ومن نسيان إلى نسيان ومن بعد إلى بعد.

لم يعد يعرف شيئاً عن أهله، ولا كان يعرف بما حدث خلفه. لم يعد يعرف ماذا حلّ بإخوته أو بوالديه أو بأحد. لقد سلّم نفسه للعبث فتسلّمه وأعطى حياته للسراب فتلفقها. وصار كلما قرر العودة إلى نفسه وإلى وطنه كلما وجد الأمر أكثر صعوبة. كيف يواجه هذا الموقف؟ كان ينام على أساس أنه عائد في الغد، وفي الغد كان يفيق من جديد فلا يعود. ويوم انتهت حرب الجزائر قرر أن هذه هي الفرصة المناسبة لأن يعود لكنه مرة أخرى استسلم للخوف، وبدلاً من ذلك عاد إلى السنغال ثم إلى كاويلاك فافتتح لنفسه محزناً ثم اثنين ثم صفّق طرباً.غداً يعود ثرياً ومنتصراً إلى أهله. لكن سوء الحظ ما لبث أن طرق الأبواب وراح ينتقل من فقر إلى فقر.

وفي هذا الفقر التقى مريم.

كانت صبية حسناء تبيع التوابل في ساحة كاويلاك، ولم تمض أيام حتى تزوجا. وكانت مريم من دون أحد، من دون أب ومن دون أم ومن دون أشقاء فقط معها ابتسامتها وسمرتها وصباها، وقد تزوجا. ثم راح يحب مريم، ومنذ اللحظة التي غادر فيها لبنان بدأ أول مرة يشعر بطعم الحياة قرب مريم. حتى في ذلك الكوخ الصغير. تلك الواحة البسيطة بدت الحياة جميلة إلى جانب مريم.

لم تطرح مريم أي أسئلة، لم تتقدم بأي مطالب، فقط قالت إنها سعيدة ثم راحت تعطيه الحب والعائلة، لكن هو كان يصرّ على أن يحدثها، وكلما افترش أرض البيت كان يضع رأس مريم على حضنه ثم يأخذ يحدثها

وكأنه يحدث نفسه وكان كل شيء غريباً على مريم، الأسماء غريبة، الذكريات غريبة. الشرفة غريبة. صوفر وبيروت، وطبعاً الحلويات. لطالما حدثها عن الحلوى التي لم يعد يذوق طعماً لها. عن الأطباق الشهية، لكن كل شيء لم يكن يعني شيئاً لمريم. إنها صبية جاءت من الغابة. وبعضهم كان يقول لها إن أهلها جاؤوا بها الطريق كله من على ضفاف الكونغو. وكان اسمها مريم، وهذا كل شيء.

لكنه كان يسرّ أشياء كثيرة إلى مريم قبل أن يذهب إلى النوم، كان يروي لها حكاية المرأة التي أحبها في بيروت فتبتسم مريم، وكان يتضايق. إنه يريدها أن تقدركم هي مأساوية حكايته وكيف يغادر المرء وطناً من أجل امرأة، لكن مريم كانت تبتسم وتمنحه الأطفال وأكواب الشاي وكل صباح ترتب له طبق الفستق وهي تبتسم.

لقد أدمن هذه الحياة الآن، حياة باعة الفستق، ولم يعد يستطيع أن يمّيز أيهما حياته الحقيقية، هذه أم حياة الأمس: أن يفترش التراب داخل كوخه هنا في كاويلاك، أم ذلك الفراش الوثير في بيروت، ولم يعد يعرف أي حياة يختار. حياة هذا الكوخ مع مريم وأبنائه الخمسة، أو أن يعود إلى أمه وأهله؟ وكيف يعود ومعه زوجة سنغالية وأطفال سنغاليون؟ وماذا يفعل بمريم؟ كيف يعلمها اليوم أن في الحياة ما هو أبعد من ساحة كاويلاك وحي الفقراء فيها؟ كيف يمكن لها أن تتقّبل العالم الجديد مع أولاد خمسة، عالم ليست مضطرة فيه لأن تهّيئ صدر الفستق كل صباح ولا أن تغلي الشاي على موقد من الحجر والرماد..

هل خطرت له فكرة الفرار؟

أجل. وبكل خجل خطرت له فكرة الفرار، فكرة العودة إلى ثراء بيروت والى راحتها والى كسل بعد الظهر في بيروت، لكنه كان كلما نظر إلى أبنائه الخمسة نائمين على أرض الكوخ لا يلبث أن ينحني على أقدامهم ويقبلها. وكانت أقدامهم سوداء وقلوبهم مثل الفل الأبيض، وكان يخشى أن يكتشفوا ذات يوم أن والدهم ليس أفريقياً وإن سمرته مزّيفة ومكتسبة وأن أمهم هي التي منحتهم السمرة الحقيقية، وما أن يطلع النهار حتى ينسى فكرة الهرب، بل يستفيق فيجدهم قد أفاقوا قبله يلهون ويضحكون ويتداعبون، ويعلو صراخهم في تلك الواحة الحارة ويتداخل مع صراخ الصبية الآخرين. ومريم تبتسم، تبتسم، وتدندن، تبتسم وتهيئ طبق الفستق.

الحلقة الأخيرة

تلك كانت ابتسامة مريم، صباح الابتسام ومساء الابتسام، لم يكن في عالم مريم ما يستحق الحواجب المقطبّة، لم تكن هناك قضايا، وحتى الوطن لا تعرفه ولا تعرف معناه. حتى الأم لا تعرفها إلا من تجربتها كأم في ذلك الكوخ عند أطراف كاويلاك، ولذا فأنها لم تعرف الحزن، أما هو فكان كتلة من الفشل والضياع والمنافي والأوطان، وكان كتلة من الحروب والسلام والفرار من الجندية، ومن دون أن يدري كان بطلاً روائياً مليئاً بالفصول مغلقاً بالعناوين، لكن لم يكن هذا ما يريد، كان كل ما يريده أن يظل قابعاً على الشرفة في صوفر وأن يتزوج من المرأة التي رمته على القارعة مثل ورقة خريفية، قالت له لا، ثم أكملت طريقها وكأنه كان يعرض عليها كوباً من العصير أو قرنفلة أو لعنة. أعطته خيبة العمر ومشت، وقالت لا، ومشى هو على طريق لا نهاية لها من الحزن والعبث وترك أمه خلفه تعتقد أنها السبب ووالده يعتقد أنه السبب وكل من حوله يعتقد أنه سبب غيابه، لكن السبب الحقيقي كان تلك المشاعر القادرة على أن تطحن أولئك الذين دون العشرين فيعتقدون أن الانفصال مع من يحبون ليس نهاية العلاقة بل نهاية الكون أيضاً، غير أن الكون لم ينته، بل أخذ ينتقل به من دنيا إلى دنيا ومن عذاب إلى عذاب ومن عبث إلى عبث، أليس نهاية العبث أن يكون وريثاً كبيراً في لبنان وبائع فستق في السنغال؟ أليس عبثاً أن يلقى المأساة تحت أشجار صوفر مع رفيقة الدراسة وأن يلقى السعادة هنا، مع مريم، رفيقة الغابات والأدغال وساحة كاويلاك.

أيقظه الحاج عثمان من شروده الفكري.

- ها، ماذا قررت، أرى أنك ذهبت بعيداً في تفكيرك.

وتدخل الأستاذ شفيق في شيء من المزاح والخوف.

- لا. لا مجال للتفكير. إنه عائد معي.

يعود؟

لا أحد يريد العودة مثله. لكن هذه أول مرة يواجه فكرة العودة حقاً. كيف يعود؟ كيف يواجه أمه بعد كل هذا الانقطاع؟ كيف يعود إليها كهلاً متعباً، ومريم؟ والأولاد الخمسة؟ كيف ستنتقل مريم من حياة الأكواخ في كاويلاك إلى حياة البيوت والشرفات في بيروت؟ كيف ستخاطب أهله؟ كيف سيلعب أطفاله مع صبية الحي؟

وكأنما كان الأستاذ شفيق يقرأ كل شيء في فكره. فقال له وكأنه يكمل عنه خط التساؤلات:

- الإنسان يعتاد كل شيء، وغداً تعتاد العودة إلى بيتك الحقيقي. وامرأتك أيضاً، آه، بالمناسبة. ألن تقدّمني لها؟

يقدّمه لها؟ يترك لرجل من أصدقاء العائلة أن يرى أي حياة يعيش؟ يسمح له بالدخول إلى كوخه؟

ومرة أخرى قاطعه الأستاذ شفيق قارئاً أفكاره:

- أجل، الحاج عثمان وأنا نريد الذهاب إلى بيتك.

وحاول أن يعترض لكنه لم يقو، لم يعد يقوى على شيء سوى الصمت والقبول، كيف يمكنه وهو في هذا العمر أن يدخل عالماً جديداً، وها هو عالمه الأول، ذلك العالم القديم ، يصبح الآن عالماً جديداً يخشى الدخول إليه. ينظر إليه كأنه لا يعرفه، كأنه لم يكن فيه ولم يولد فيه، إنه الآن مثل الشرنقة التي صارت فراشة لكنها فراشة حزينة على كل حال.

وقام ليمشي متطلعاً في الحاج والأستاذ شفيق، هامساً ما معناه أن يلحقا به، ومدّ يده إلى طبق الفستق لكن الأستاذ شفيق قبض على معصمه بشدة، فترك عند ذلك طبق الفستق في مكتب الحاج عثمان، وشعر وكأنه تعرّى. لقد فقد شيئاً منه، لن يحمل صدور الفستق بعد الآن ولن يلبس هذه الجلابية البيضاء المرقعة بعد اليوم.

كيف سيبلّغ مريم، ماذا ستقول مريم؟ لا شيء، لن تقول شيئاً. سوف تبتسم، لكن هل تبتسم وتقبل أم تبتسم وترفض؟ كيف يسمح له ضميره بأن يدفع هذه المرأة إلى بحر من الحزن إلى عالم لا علاقة لها به، إلى عالم كل شيء فيه جديد عليها، حتى اللقمة سوف تكون جديدة على مريم. وسوف تبدو بين أهله وأصدقائه مثل دمية تتحرك بالإشارات، لا تفهمهم ولا يفهمونها.

لا، لن يعود إلى بيروت، إنه سعيد في هذا العالم، لقد تعرّف إلى رجل يشتغل بائع فستق ويقف عند زاوية الفندق في كاويلاك ويعود كل يوم سعيداً إلى كوخه الصغير، وهذا الرجل لا علاقة له بذلك الشاب الذي ترك لبنان من أجل امرأة، ولا علاقة بذلك المسافر الذي كان يرش الأحلام على الطرقات، كيف يجمع الآن بين هذا وذاك؟ كيف يجمع بين الرجل والظل. وأيهما أفضل؟ أيهما أكثر هناء؟

كانت مريم تقف عند باب الكوخ الصغير، لقد سمعت، هي والأولاد ضجيج سيارة في الخارج فخرجت تستطلع: السيارات لا تصل الحي إلا نادراً، فتبدو لأهله مثل لعبة طريفة، وقفت مريم والأولاد عند الباب. وكانت تحمل أصغرهم على ساعدها، وكانت تضع منديلاً مقصباً ومطرّزاً بالخرز، وكانت مليئة بالحياة والابتسام، ووقف كبير الأولاد يتطلّع في فضول فيما تعلّق الصغار بثوبها، وأمام العتبة كانت تطهو كالمعتاد طبخة المساء، أشياء من الحبوب والتوابل والموز.

وعندما ترجّل من السيارة ومعه رجلان غريبان أحدهما أبيض، شعرت مريم للمرة الأولى في حياتها بالقلق، أو ربما بالخوف، لكنها لم تكن تعرف كيف تذعر فبقيت في مكانها، وتقدم منها وقبّل الطفل الذي على ساعدها. ثم هرع إليه أطفاله الآخرون، وتحلقوا حوله.

ولم تعرف مريم ماذا تقول لكنها سألته بطريقة غريزية كمن شعرت أن شيئاً أخذ منها: ماذا حدث لطبق الفستق؟

لقد ظنت أن أحداً سرقه أو أن الشرطة صادرته أو أن سيارة قفزت إليه على الرصيف، وعادت تسأله ماذا حدث، لكنه ربت على كتفها بهدوء، وحيّاها الحاج عثمان وكأنه يطمئنها، ولكنه في الحقيقة انتزع منها الاطمئنان، ثمة شيء ما، قالت بحدس أبناء الغابة أن عاصفة سوف تسقط على المكان. وتطلّعت إلى الأستاذ شفيق، إلى الرجل الأبيض، فرأت فيه كتلة من اللحم تحتار ماذا تفعل، لقد صعق الأستاذ شفيق. لم يكن يعرف أن هذه هي حدود الفقر، ولم يكن يعرف أن ثمة سعادة تحلق وسط هذه الأكواخ، وها هو الآن آت لكي ينتزع هذه السعادة من أجل سعادة أخرى. لكن هل يضمن أن السعادة الأخرى موجودة حقا؟

وراح يدور حول نفسه مثل الأطفال. فقد فجأة الكلام وفقد القدرة على الدفاع وفقد المقدرة على إصدار الأحكام. ماذا يقول الآن؟ وكيف يشرح لمريم وللأطفال أي قضية هو في صددها الآن، وكاد يضحك، إنها المرة الأولى التي يغادر فيها لبنان وها هي الرحلة تصل به مرة واحدة إلى أطراف «كاويلاك»، حيث عليه أن يحكم فوراً، وفي هذه اللحظة: أما «الست» التي كان محاميها الأول وأما لهذه المرأة الفرحة الآتية من الغابة. أما للأم التي أصبحت حبيسة النافذة منذ سنين وأضناها الانتظار بسبب هذا الرجل وأهلكها الشعور بالذنب بسبب خطيئة لم ترتكبها، وأما لهذه الأم السمراء التي منحت هذا الرجل الضائع خمسة أطفال وكوخاً وهذا الموقد الصغير أمام الكوخ.

وحده الحاج عثمان كان قوي الأعصاب، وكان يعرف ما يريد. هناك قانون وهناك قضية وهو محام، إذاً، تحل هكذا. يجمع الرجل حقائبه، أو بالأحرى يشتري له حقيبة وطقماً ويشتري لمريم فستاناً غير معرق ولا مليء بالزهور ويشتري للأطفال عباءات أخرى جديدة أو بذلات، ثم يشتري للجميع تذاكر إلى بيروت.

وفيما وقفت مريم ترجو أن يقول لها أحد أي كلمة بادرها الحاج عثمان بصوت خالٍ من أي مشاعر:

- مريم، أنت والأولاد تسافرون غداً إلى بيروت.

وبكت مريم.

للمرة الأولى في حياتها تبكي. ونظرت إلى زوجها في تساؤل. وأخذ الطفل على ساعدها يبكي، ونظرت إلى الأستاذ شفيق، إلى الرجل الأبيض الآخر، وكأنها تقول له بكل عتاب: إذاً، هذا سر مجيئك.

ونظر الأستاذ شفيق خَجِلاً في الأرض.

ثم اندفع الابن البكر نحو أبيه وأمسك به من صدره.

- بيروت؟ حقاً، بيروت يا أبي؟

وانحنى الرجل على أولاده يقبلهم، لم يكن هناك كلام، قبلهم، وعاد الابن البكر يسأل:

- هل حقاً سنذهب إلى بيروت؟

وهزّ برأسه وهو ينظر إلى مريم، ولم تدر كيف ترد على نظراته وتساؤلاته اليائسة، لكن الأولاد أخذوا يتفرّقون في فرح. ها هم أخيراً على أهبة الذهاب إلى بلدهم، لقد كانت بيروت بالنسبة إليهم مجّرد حكايات يتلوها عليهم في المساء حين يعود. وكان عليهم جميعاً أن يحفظوا السر وإلا يقروا بأن أبيهم جاء من بيروت، كان يمنحهم ذلك الحلم ثم يحذرهم من البوح به، لكن ها هو أخيراً يعلن وطنه أمام الناس وأمام الملأ.

لكن مريم لم تفهم، لم تكن تعرف ما إذا كانت تستطيع أن تفرح أم لا، لقد كانت أي خطوة خارج «كاويلاك» تطوى في المجهول، حتى الذهاب إلى حي الأثرياء في المدينة كان خطوة في المجهول، وها هي الآن أمام عالم جديد، عالم كامل لا علاقة لها به. لا يعرفها ولا تعرفه. لكنها شعرت بغريزة المرأة أن زوجها قد اتخذ قراره، إنه يريد العودة.

مرة ثانية شعرت بالخوف. ما هو الخوف؟ إنه شعور لم تكن تعرفه من قبل، إنه شيء حقير يشبه اليأس ويلغي كرامة البشر، لقد أصبحت فجأة تخاف على هذا الرباط الذي شدها إلى بائع الفستق، إنها الآن تخاف

عليه من سعادته، من أهله، من بلده، لا لن تسمح لنفسها بأن تخاف.

قطع الأستاذ شفيق التفكير على الجميع. لا بد من الحسم:

- حسناً تدبر أمورك اليوم. وغداً نذهب إلى داكار ونستقل الطائرة من هناك.

وعاد الأستاذ شفيق والحاج عثمان إلى السيارة، أما هو فأدخل أولاده أمامه إلى الكوخ. وأخذ يتطلع في ذلك المكان الصغير مودعاً. وراح يتلمّس السائد والمقاعد الحجرية الصغيرة.

وسأل مريم من دون مقدمات:

- هل أنت سعيدة بالذهاب إلى بيروت؟

وهزّت مريم رأسها وابتسمت.

- أنا سعيدة حيث تكون، السعادة غير مهمّة.

وقبّلها في جبينها، وأخذ يتفقد أشياءه الصغيرة، بذلة القتال في الجزائر وبعض الرسائل وبعض الكتب وصوراً قديمة هنا وهناك، وصوراً له مع مريم.

ثم قال لمريم إنه خارج لكي يشتري حقيبة ما، لها وللأولاد. وقطع الحي للمرة الأولى من دون طبق الفستق، وفي السوق عرف أن «كاويلاك» كلها عرفت بالخبر. وكان البعض ينظر إليه في امتعاض وخيبة، خاصةً الباعة، وراحت النسوة منهن يتساءلن في همهمة وصوتٍ عال: ومريم مسكينة مريم، ماذا سيفعل بها.

عندما اشترى الحقيبة وطقماً له مرّ من جديد بالفندق، وكان الأستاذ شفيق للمرة الأولى يجلس في البهو ويتحدث إلى موظف الاستقبال، وبدا الاثنان سعيدين بذلك الحوار. وفوجئ الأستاذ شفيق به آتياً فقام من مقعده وتساءل : خير. هل حدث شيء ما؟

وقال له: لا فقط جئت أعرض عليك الحقيبة لترى ما إذا ما كانت لائقةً أم لا.

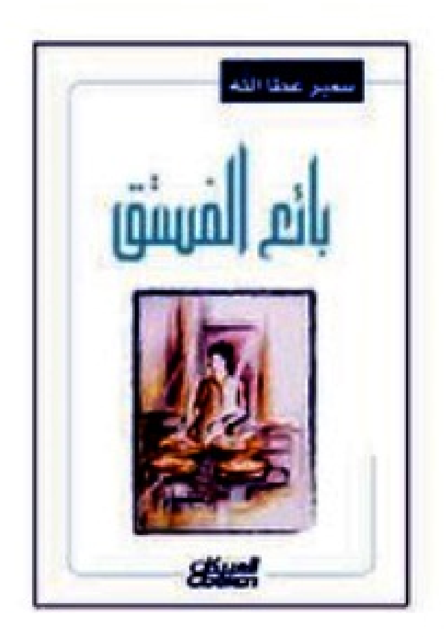
وضحك مطمئناً.

لم تنم «كاويلاك» تلك الليلة، على الأقل أهل الفندق وأهل السوق وأهل ذلك الحيّ الفقير في أطراف المدينة. ومريم لم تنم. أما الأولاد فاستسلموا جميعاً لأحلامهم الصغيرة.

وفي اليوم التالي كان الجميع في داكار يجوبون الشوارع ويشترون ويتضاحكون، وودّعهم الحاج عثمان بعدما دفع له الأستاذ شفيق حسابه كاملاً، وأخذوا جميعاً يحلمون بساعة الوصول.

وتلك الليلة أيضاً لم ينم أحد من القافلة العائدة، واتجهوا في ساعة مبكّرة جداً لم إلى المطار، ومن النافذة رأى طائرة «الميدل إيست» فاستحق الأمر وراح يرتجف، وشاهدها أولاده فأخذوا يقفزون طرباً، واتجه الجميع نحو الجوازات مثل أهل الغابة، الواحد وراء الآخر، ولما وصلوا إلى ناحية الجمرك وقف وتفقّد القافلة واحداً واحداً ونظر إلى مريم في آخر القافلة.

لم تكن هناك. ووضع طفله الصغير من يده وراح يبكي مثل الأطفال. لقد كان يشعر سلفاً أن مريم سوف تذوب، على طريقتها طبعاً، لكنه لم يكن يصدّق أنها ستفعل ذلك حقاً.





هذا الكتاب

"بائع الفستق" رواية إنسانية تقع أحداثها بين الواقع والخيال، يسطرها سمير عطا الله بأسلوب قصصي يجعل القارئ واحداً من الشخصيات التي تترقب. وعلى زاوية من إحدى زوايا مكان وزمان الراوي، بإحساس منفعل. لحظة ضياع الأخ، ومأساة الحادثة التي خيمت بتداعياتها على المناخ العام للرواية؛ فبين صوفر وكاويلاك في السنغال تمتد الأحداث بمجرياتها، والمكان الذي يتذكره القارئ أكثر ومن خلال تلك الأحداث. هي تلك الزاوية القابعة بجوار فندق، حيث يقف عندها بائع الفستق الذي به تبتدئ الرواية وبه تنتهي.

الناشر

موضوع الكتاب: القصص العربية - لبنان
موقعنا على الإنترنت:
http:/www.obeikanbookshop.com


ISBN:978-9960-54-584-4
9789960545844
ORD:000466-1